المدخـــل
إلى علـــم اللغـــة

للدكتور أحمد مصطفى أبو الخير

١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ : -

: ﴿ من تكلم العربية فهو عربى ﴾ .

: ﴿ من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية - اللغة الأجنبية - يورث النفاق﴾.

: ﴿ يأيها الناس ، إن الرب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى ﴾ .

بعض الآثار عن الصحابة : -

قال أبو موسى الأشعرى :

: (تفقهوا فى العربية ، وأعربوا القرآن فهو عربى) .

وقال عمر : (تعلموا العربية فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم) .

وقال ابن تيمية :

(العربية شعار الإسلام ولغة القرآن) .



المحتويات

المحاضرة الأولى

اللغة ظاهرة فردية اجتماعية

إنسانية

***

اللغة العربية فردية اجتماعية إنسانية ، فردية لأن الفرد هو الذى يصدرها ويحتاج إليها، ويتعامل بها ، واجتماعية لإن المجتمع البشرى فى حاجة ماسة إليها ، فهى أهم وسيلة من وسائل الاتصال ونقل الأفكار والمشاعر وأكثرها نجاحا واستخداما .

وإنسانية لأنها خاصية الإنسان وحده ، وأهم ميزاته وخصائصه لا يشركه فيها طيرا ولا حيوان مهما علت رتبته ، ولقد حاول بعض العلماء تعليم اللغة لأرقى الحيوانات فلم تفلح جهودهم برغم ما بذل فى هذا المجال من مجهودات أشار إليها الدكتور نايف خرما فى كتابه أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، والدكتور محمد عماد الدين اسماعيل فى كتابه : (الأطفال مرآة المجتمع) والكتابان من منشورات عالم المعرفة بالكويت .

ومن الجدير ذكره أن القرآن الكريم لم يستخدم كلنة (لغة) على الإطلاق [1](١) بل عبر عن اللغة بمصطلح آخر هو (اللسان) الذى ورد فى خمسة وعشرين موضعا من الكتاب العزيز ، وهى :

١ - (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) ٧٨ / المائدة

٢ - (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) ٤ / إبراهيم .

٣ - (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى) .

٤ - (وهذا لسان عربى مبين) ١٠٣ / النحل .

٥ - (ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا) ٥٠ / مريم .

٦ - (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) ٨٤ / الشعراء .

---

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم

٧ - (لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) ١٩٥ /الشعراء .

٨ - (هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى) ٣٤ / القصص .

٩ - (وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا) ١٢ / الأحقاف .

١٠ - (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) ٩ / البلد .

١١ - (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين) ٩٧ / مريم .

١٢ - (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) ٥٨ / الدخان .

١٣ - (لا تحرك به لسانك لتعجل به) ١٦ / القيامة .

١٤ - (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) ٢٧ / طه .

١٥ - (ويضيق صدرى ، ولا ينطلق لسانى) ١٢ / الشعراء .

١٦ - (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) ١٩ / الأحزاب .

١٧ - (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال ، وهذا حرام) ١٤٦ / النحل .

١٨ - (إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ، ما ليس لكم به علم) ١٥ / النور .

١٩ - (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) ٢٢ / الروم .

٢٠ - (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب) ٧٨ / آل عمران .

٢١ - (واسمع غير مسمع ، وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) ٤٦ / النساء .

٢٢ - (وتصف ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ٢٤ / النور .

٢٣ - (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ٢٤ / النور .

٢٤ - (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) ١١ / الفتح .

٢٥ - (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) ٢ / الممتحنة .

وحين تنعم النظر فى الآيات السابقات نجد أن كلمة اللسان استخدمت بمعنى اللغة فى مواضع كثيرة ، تصل إلى الثمانية كما استخدمت فى مواضع أخر بمعنى العضو المعروف فى الفم .

ولكن القرآن الكريم حين أراد الإشارة إلى ما يسمى (لغة) الطير استخدم كلمة منطق التى جاءت فى موضع واحد من القرآن الكريم : (وورث سليمان داود ، وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ ، إن هذا لهو الفضل المبين) ١٦ / النمل

وربما كانت هذه إشارة من الخالق - جل وعلا - إلى أن اللغة ، أو اللسان - كما عبر القرآن الكريم - شئ يخص الإنسان وحده ، ولم تعط هذه النعمة لمخلوق غيره ، إذ هو سيد الكون ، وكل ما فى الكون مسخر لخدمته ، ولعل هذا ما يفسر لنا فشل المحاولات المتواصلة لتعليم اللغة البشرية للحيوانات هذا الفشل الذى يهدم النظريات الجاهلية التى تلهث سعيا وراء إلحاق الإنسان الذى كرمه ربه وجعله خليفته فى الأرض بركب الحيوانية لتنطلق الغرائز من مكامنها وتحرر من كل عقال .

ومن هنا يمكن القول مرة أخرى بأن اللغة ظاهرة إنسانية أو بمعنى آخر ، اللسان خاص بالإنسان وحده ، أما المنطق فيخص الطير والحيوان والنبات والجماد أيضا ، هذا المنطق الذى تعتبره وسيلة التعبير عند هذه المخلوقات ربما يكون أصواتا [٢](١) ذات نظام خاص ، أو إشارات أو غير هذه أو تلك ولكنها بالقطع تختلف جذريا عن اللغة البشرية .

ويستخدم المنطق المشار إليه كوسيلة اتصال بين المخلوقات الأخرى ، كما يستخدم أداة لتسبيح الخالق - جل وعلا - تلك الحقيقة التى نص عليها الكتاب الكريم فى مواضع شتى منها: (تسبح له السماوات السبع ومن فيهن ، وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) ٤٤ / الإسراء .

---

(١) وربما لا تستطيع الأذن البشرية التقاطها .

وجاء فى تفسير بن كثير [3](١) : وقوله : (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) أى وما من شئ من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أى لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس - لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، وهذا أشهر القولين ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود أنه قال : (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل) وفى حديث أبى ذر أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل ، وفى سنن النسائى ، نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل الضفدع ، وقال : (نقيقها تسبيح) .

ومن الطريف أن الشجرة التى لا تسبح الله تفرض عليها عقوبة (التعضة) وهو عبارة عن تحور الأوراق إلى شوك ، أو تشوك هذه الأوراق ، يقول النبى الأكرم - صلى الله عليه وسلم : (

وإذا كان البشر بشكل عام لا يفقهون منطق المخلوقات الأخرى وتسبيحهم فإن الله قد أعطى بعض أنبيائه القدرة على فهم هذا المنطق : يقول .. سبحانه وتعالى فى سورة النمل : (وورث سليمان داود ، وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنود ، من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل أدخلوا أماكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) الآيات ١٦ / ١٩ .

ومر سليمان - عليه الصلاة والسلام - بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه: (أتدرون ما يقول ؟) قالوا : (وما يقول يا نبى الله ؟) قال : (يخطبها إلى نفسه ، ويقول :

---

(١) ٣ / ٤٢.

زوجينى أسكنك أى غرف دمشق شئت !) قال سليمان عليه السلام : (لأن غرف دمشق مبنية فى الصخر ، لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب) [٤](١) .

ولابد أن النملة كانت تتحدث إلى بقية النمل بمنطقها ، وكذلك العصفور أيضا لن يستخدم فى خطبته غير منطق العصافير ولم يكن لغير نبى الله سليمان -عليه الصلاة والسلام - أن يفهم منطق هذا النوع من المخلوقات .

بل إنه - عليه الصلاة والسلام - كان يحاور هذه المخلوقات كما جاء فى حواره مع الهدهد والتحقيق معه عن سبب غيابه تلك القصة التى جاءت فى صورة النمل ، وهذه من النعم التى خص بها سليمان -عليه الصلاة والسلام - ، ولم تكن لأحد غيره إلا أن يشاء الله .

وعدم معرفة البشر بمنطق المخلوقات الأخرى أمر منطقى وطبيعى فإننا لا نحتاج إلى هذا المنطق فى استخدامنا لما سخره لنا رب الكون من طير أو حيوان أو نبات أو جماد كما أن هذه المخلوقات لا تعرف ألسنة البشر ، وإلا لتعرضت الأسرار الخاصة ببنى آدم للذيوع والإفشاء بواسطة المخلوقات الأخرى ولكن الله سلم .

على أن رب العزة - جلت قدرته - قد ينطق الرضيع قبل فطامه ، كما أنطق عيسى - عليه الصلاة والسلام - فى المهد صبيا ، وقد ينطق الحيوان أو الطير أو غيره ، فقد جاء فى سورة النمل : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) قال الإمام على ، رضى الله عنه : (تكلمهم [٥](٢) كلاما أى تخاطبهم مخاطبة) وكلام الدابة هذه من علامات القيامة ، فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله ، حيث تخبر الكافر عن كفره والمؤمن عن إيمانه لتمايز الناس ، كفرا أو إيمانا .

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٩٨ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير لهذه الآية ٣ / ٣٢٤ – ٣٧٦ .

بل إن ربنا - جلت قدرته - سينطق أعضاء الإنسان لتشهد عليه يوم القيامة : (يوم يشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ٢٤ / النور ، ولابد أن تكون الشهادة بلسان المشهود عليه أو بلسان يفهمه على الأقل ، وهناك آيات سورة فصلت : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ ...) وفى سورة يس (اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون).

والخلاصة أن لسان الإنسان ومنطق المخلوقات الأخرى يختلفان تماما كالاختلاف بين الإنسان وبين الحيوان أو الطير أو النبات ، وليس لدى أرقى الحيوانات استعداد لتعلم أى لسان من ألسنة البشر ، فقد كرم الله بنى آدم وجعله خليفته ، وسخر له كل ما فى الكون لخدمته .

المحاضرة الثانية

الأنظمة الفرعية للغة

***

قبل أن نتكلم عن الأنظمة الفرعية للغة نشير إلى أن هذا العلم الذى نسميه : (علم اللغة) قد يشار إليه بمصطلحات غير مصطلحنا ، مثل : فقه اللغة ، اللغويات ، أصول اللغة اللغة ، اللسانيات .. إلخ) لكنا فضلنا المصطلح الأكثر شيوعا ودقة ، إننا ندرس اللغة والطريق إلى هذا علم ، يسمى علم اللغة ، كما نقول : علم النبات ، علم الحيوان ، علم الاجتماع ، علم النفس ... إلخ إضافة إلى أن مصطلح علم اللغة يمكن أن يكون ترجمة مناسبة للمصطلح الإنجليزى Linguistics الذى يعنى الدراسة العلمية الحديثة للغة ، أية لغة .

أما المصطلحات الأخرى التى رفضناها فهى بالإضافة إلى عدم شيوعها وعدم دقتها ربما تفيد ما لا نريد من المعانى ، والخلاصة أننا نختار المصطلح (علم اللغة) على غيره من المصطلحات ، ونعنى به الدراسة العلمية الحديثة للغة ، أية لغة ، إذ هو فيما نرى ترجمة مناسبة للمصطلح الإنجليزى الذى سبقت الإشارة إليه .

أما اللغة - أية لغة - فهى بناء عام ، أو نظام عام يتكون من عدة أنظمة فرعية - كالبناء الذى يتكون من عدة طوابق أو أدوار تكون فى مجموعها النظام العام للغة .

وقد اختلفت آراء العلماء حيال تقسيم النظام العام للغة ، فرأى بعضهم أنها تقسم إلى قسمين رئيسين ، الأول الأصوات ، والثانى المعنى وهذا ما يتفق إلى حد كبير مع تعريف اللغة بأنها (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) ، فهذا التعريف يشتمل على الجانبين الرئيسين الأصوات ثم التعبير عن أغراض المتكلمين ، أى المعنى .

وبعض العلماء يقسم النظام اللغوى ، أو اللغة إلى قسمين ، هما القواعد والمعنى فالأول يشمل الأصوات والصرف والنحو ، والثانى يتضمن المعاجم وعلم الدلالة ، وهذا تقسيم لا غبار عليه ، ولا بأس به .

ولكنا نميل إلى التقسيم الأخير ، إذ هو تفصيل للتقسيمين السابقين على هذا النحو :

١ - النظام الصوتى ويختص بدراسته علم الأصوات .

٢ - النظام الصرفى ويختص بدراسته علم الصرف .

٣ - النظام النحوى ويختص بدراسته علم النحو .

٤ - النظام المعجمى ويختص بدراسته علم المعاجم .

٥ - النظام الدلالى ويختص بدراسته علم الدلالة .

ونشير بكلمة موجزة إلى كل نظام من الأنظمة السابقة فنقول :

أولا : النظام الصوتى :

إن الاهتمام بدراسة أصوات اللغة اهتمام قديم فقدم الهنود القدماء ، والمسلمون فى القرون الوسطى جهودا عظيمة فى دراسة أصوات اللغة العربية ولا يزال تراث المسلمين فى مجال دراسة الأصوات له قيمته العلمية التى لا تنكر برغم بعد الزمن بيننا وبينهم ، إلا أن الدراسات الصوتية خطت خطوات واسعة وجبارة فى الاتجاه العلمى الحديث ، نظرا لأن الأصوات شئ مادى محسوس فى حين أن الجوانب الأخرى من اللغة هى جوانب تجريدية،كما أن الأصوات هى المادة الخام التى تتألف منها اللغة فهى لذلك أول ما يقدم العلماء على تناوله بالدراسة والتحليل .

ويدرس علم الأصوات الصوت الإنسانى الذى ينتجه الإنسان ليعبر به لزملائه من البشر ، من أجل تبادل الأفكار والعواطف والأحاسيس ، والصوت الذى يستخدمه الإنسان فى هذه العملية هو محل دراسة هذا العلم .

وهناك فرق بين علم الأصوات وعلم الصوت ، ذلك أن الأخير يدرس الصوت فى ناحية من نواحى الكون ، صادرا من أى مصدر ، لأى غرض ، أو حتى بدون غرض ، فحين ترعد السماء يدرس عالم الصوت هذه الظاهرة ، أما عالم الأصوات فلا شأن له بذلك ، لأنها ليست كلاما ، وإنما هو يدرس صوت الإنسان الذى يستخدمه للتعبير عن فكرة أو إحساس ،هذا هو علم الأصوات .

وصفوة القول أن علم الأصوات يدرس الصوت الإنسانى ، من ناحية وظيفته اللغوية أو من وجهة النظر اللغوية ، أو بمعنى يدرس الصوت اللغوى فقط أى الداخل ضمن إطار اللغة ، أية لغة .

وتمر عملية الكلام بثلاث مراحل ، الأولى مرحلة النطق ، والثانية مرحلة انتقال الصوت من فم المتكلم إلى أذن السامع ، والثالثة مرحلة السمع ، وتختص هذه الأخيرة بعمل الأذن منذ أن تستقبل طبلة الأذن الصوت الإنسانى إلى أن يصل إلى مركز السمع فى المخ حيث تترجم الذبذبات إلى كلام مفهوم ، أو كما يعبر النحاة : (جمل مفيدة) .

وقد تكفل بدراسة المرحلة الأولى علم الأصوات المنطقى ، وبالثانية علم الأصوات الفيزيائى أو الانتقالى ، كما اختص علم الأصوات السمعى بدراسة المرحلة الثالثة والأخيرة،أى مرحلة السمع ، ***ونشير بكلمة موجزة عن كل مرحلة من المراحل :***

أولا : علم الأصوات المنطقى : ويختص هذا العلم بدراسة مرحلة نطق الصوت ، أى إخراجه وانتاجه ، فيدرس مثلا أعضاء النطق التى تنتج الصوت ، وكيفية انتاج الأصوات وأى عضو بالتعاون مع أى عضو من أعضاء النطق يخرج هذا الصوت أو ذاك ، وهذا ما يركز عليه علماء الأصوات ، برغم أنهم يفيدون من العلمين الآخرين الذين سنتحدث عنهما إلا أن هنا الجانب لأهميته وسهولة دراسته كان أقدم أنواع الدراسة الصوتية وأنضجها .

ثانيا : علم الأصوات الفيزيائى : ويختص - كما سبق - بدراسة الصوت اللغوى فى المرحلة التى ينتقل فيها من شفتى المتكلم وأنفه - مارا بالهواء الخارجى - إلى أن يصل إلى الأذن الخارجية للإنسان

وربما كان هذا النوع من هذه الدراسة أقرب إلى دراسة الصوت منه إلى الدراسة اللغوية فى علم الأصوات ، إلا أن إمكانيات البحث الحديث من الأجهزة والآلات بكتب علماء الأصوات من ولوج هذا المجال والإفادة منه فى الدراسة اللغوية ، وفى الوقت نفسه أدى توفر المعلومات الحديثة عن فيزياء الصوت علماء اللغة من تلك المعلومات .

ومن المعروف أن الصوت اللغوى ينتقل عبر الهواء - أو عبر أى وسط آخر - على شكل ذبذبات ، كل ذبذبة لها اتساع معين يترتب عنها علو الصوت أو انخفاضه - وكل مجموعة من هذه الذبذبات . تسمى موجة ، تسير بسرعة معينة ، وعدد الذبذبات فى الثانية يسمى بالتردد .. إلخ كل هذه الأمور يدرسها علم الأصوات الفيزيائى .

ثالثا : علم الأصوات السمعى : يبدأ عمل هذا العلم من اللحظة التى يطرق فيها الصوت طبلة الأذن إلى أن يصل إلى مركز السمع فى المخ ، ويتم إدراك الصوت عندها وفهمه .

وقد نتحدث عن بعض الظواهر الصوتية فى لغة ما ، كأن نتحدث الترقيق والتفخيم فى العربية ، أو نقسم أصوات لغتنا إلى صوامت وحركات (١) ، أو ندرس نظام النبر (الضغط على بعض مقاطع العربية مثلا) فهذا كله مما يدخل فى إطار علم وظائف الأصوات ويصح أن يسمى : (أصوات العربية) أو : (علم أصوات العربية) .

---

(١) الحركات فى العربية هى : (الفتحة – الضمة – الكسرة – ألف المد – واو المد – ياء المد السكون)
والصوامت هى : (الألف – الباء – التاء – الثاء – الجيم – الحاء – الخاء – الدال – الذال – الراء – الزاى – السين – الشين – الصاد – الضاد – الطاء – الظاء – العين – الغين – الفاء – القاف – الكاف – اللام – الميم – النون – الهاء – الواو – الياء)

أما إذا درسنا ظاهرة صوتية عامة لا ترتبط بلغة بعينها ، كأن ندرس التفرقة بين الأصوات المهموسة [٧](١) والمجهورة أو الفرق بين الصوامت والحركات بشكل عام ، فإننا ندرس فى إطار علم : (الصوتيات) دون ربطه بلغة ما .

وقد يمزج بعض الدارسين بين قضايا هذين العلمين ، ويضعهما تحت اسم: **(علم الأصوات العام)** وهو اتجاه عملى واقعى ومفيد ، إذ من الصعب الفصل بين قضايا علم وظائف الأصوات وبين قضايا علم الصوتيات ، فإننا على سبيل المثال لا نستطيع دراسة الترقيق والتفخيم دون ربطة بلغة ما ، كذلك ى نستطيع أن ندرس هذا الظاهرة فى لغتنا العربية مثلا دون الاستعانة بعلم الصوتيات حيث ندرسها دراسة مجردة منعزلة غير مرتبطة بأية لغة من اللغات .

وعلى أية حال فكل نشاط لغوى نستخدم فيه أعضاء النطق لنقل فكرة إلى السامع ، أية فكرة أو لنقل إحساس أى إحساس كل ذلك محل دراسة علم الأصوات ، ليس محددا بالفصحى أو بالعامية ، بالأدب القديم أو الحديث ، بل كل نشاط لغوى (صوتى) محل دراسة هذا العلم وعليه ليكون قد قام بواجب كاملا أن يدرس كل أنواع النشاط اللغوى ، على أى مستوى من مستوياته .

ثانيا : النظام الصرفى والنحوى :-

النظام اللغوى كله وحدة مترابطة متصلة ، فالصرف مثلا ليس نظاما منفصلا مستقلا بل أن بعض القواعد الصوتية تصل ما بين أصوات اللغة ومفرداتها ، أى بين النظام الصوتى والنظام الصرفى للغة ، وهذا الكلام ينطبق على النظامين الصرفى والنحوى ، فإذا كان علم الصرف يبحث فى البناء الداخلى للمفردات اللغوية وصياغتها فإن علم النحو يبحث فى علاقات المفردات بعضها ببعض فى الجمل المختلفات .

---

(١) الأصوات المهموسة التى لا تهتز عن نطقها الأوتار الصوتية ، مثل السين والشين ، والمجهورة التى تهتز عند نطقها الأوتار مثل الزاى والجيم .

ومن ثم فإن كلا النظامين يرفد الآخر ، ويتصل به اتصالا وثيقا ، لأن البنية الداخلية للكلمة تؤثر على علاقتها مع الكلمات الأخرى ، ففى جملة : (كتب الرجل الطلب) إذا تفسير الإسناد من الاسم الظاهر إلى تاء الفاعل - وهى ضمير متصل - تغيرت صيغة الفعل بشكل واضح ، بسبب إحدى القواعد الصوتية فى العربية ، إذ ستصبح الجملة : (كتبت الطلب) .

فالتغير النحوى هنا ترتب عليه تغير صرفى فى إعادة صياغة الفعل مرة أخرى بسبب إسناده إلى تاء الفاعل ، أما القاعدة الصوتية التى نعنيها فهى أن الحركات القصار لا تزيد عن ثلاث مرات متتابعات ، ومن ثم تحولت الصيغة (كتبت) بثلاث فتحات وضمة إلى الصيغة المستخدمة (كتبت) بفتحتين وسكون وضمة ، وهكذا .

ثالثا : النظام المعجمى والدلالى :

تهتم المعجمات (القواميس) بالمعانى العامة للكلمات ، ولا تهتم غالبا بالمعانى الهامشية التى تستفاد من السياقات المختلفة للكلام ولا ينكر أحد أن بعض المعانى التى يسجلها المعجم مستخلصة من سياقات معينة ، إلا أنه بمرور الزمن وتطور الاستعمال تصير تلك المعانى إلى الغموض والإبهام ، وتبعد عن الدقة والوضوح والتخصيص .

وفضلا عما سبق فإن صانع المعجم يسجل المعنى الذى يراه فى عصره أو قبله ، ولا يمكن أن يتطرق إلى المعانى التى تتحدد بعد خروج المعجم إلى الناس أو الكلمات التى تخترع ولم تكن على عهد مؤلف المعجم أو فى حياته .

ومن ثم فإن كل هذه الأهداف لا يصل إليها مدى المعجم ولا يتمكن من تسجيلها يختص بدراستها النظام الدلالى ، وهناك بعض الأمثلة .

١- إن كثيرا من الكلمات والتعبيرات يتغير معناها ، وقد يكون هذا من النقيض إلى النقيض ، فالجمل الآتية : (ثكلتك أمك[٨] (١) ترتبت يداك - يخرب بيتك - يا ابن ..) تتحول فى كثير من الأحايين من الشدة مع المخاطب إلى إلفاء الكلفة وإظهار الشفقة أو حتى الإعجاب بالمخاطب أو بما يفعل أو يقول .

وفى كلمة (قطار) مثلا نجد معناها المعجمى لا يخرج عن قطار من الإبل أى الجمال ، فى حين أنها تعنى الآن قطار السكة الحديد المعروف كما يعنى قطار من الجنود يسيرون خلف بعضهم ، كما نرى فى القوات المسلحة والشرطة .

وكلمات كثيرة تخرج إلى النور ، ولا يتمكن المعجم من الإحاطة بها فقد تولد بعد موت صانع المعجم ، أو أنه لم يعلم بها ، أو تكون من معجم اللهجات ، دون أصل فصيح فالكلمات : (التليفون - التليفزيون - الباشا - البيك .. الأفندى - البسبوسة السراى ... الخ) لا يمكن أن تجدها مثلا فى لسان العرب لابن منظور الإفريقي (ت ٢١١ هـ) إذ كلها كلمات حديثة ليس لصاحب اللسان عهد بها ، كما أبن بعضها ينتمى إلى اللهجات الحديثة لصاحب اللسان عهد بها ، كما أن بعضها ينتمى إلى اللهجات الحديثة [٩](٢) .

وفى نفس الوقت فإن معانى هذه الكلمات ربما تتغير من زمن لآخر ، فالألقاب الثلاثة: **(باشا - بيك - أفندى)** كانت تطلق فى مصر قبل سنة ١٩٥٢ على فئة معينة من الناس

---

(١) فقدتك .

(٢) فى إحدى الدول غير العربية اختيار أحد الطلاب لأنه لم يجد فى المعجمات ذكر لهاتين الكلمتين : (بسبوسة – سراى) اللتين قرأهما فى إحدى الروايات المصرية فجائى يسألنى فأخبرته أن الأولى إحدى أنواع الحلويات والثانية بمعنى القصر .

على درجة ما من الثراء والثقافة ، لكنها الآن تعنى أشياء مختلفات ، فاللقبان الأولان ما يزالان يستخدمان فى سلك القضاء والشرطة ، فالباشا هو الرئيس أو المدير ومن يعمل بصفة عامة فى هذا السلك يلقب بالبيك ، أو **(البيه)** حسب النطق الشائع ، أما كلمة : (أفندى[1] (١)) تستخدم فى القوات المسلحة حين يتحدى الجندى مع قائده ، أو مع رتبة أعلى من المتكلم
وفى بعض الأحيان يستخدم العوام هذه الكلمة للدلالة على المتعلم ، أو الذى يلبس الزى الأوربى ، وأحيانا يستخدم للاحتقار ، كما يرد فى بعض المسلسلات والأفلام وهلم جرا .

---

(١) كانت تستخدم فى القوات المسلحة (يافندم) بالميم .

المحاضرة الثالثة

أهمية علم اللغة الحديث

***

لاشك فى أهمية دراسة اللغة وضرورتها للانسان المعاصر ، ذلك أنها تعيش معنا فى يقظتنا وفى أحلامنا ، بحيث أصبحت جزءا لا يتجزأ منا ، ولأهمية اللغة هذه ، ولأسباب أخرى كثيرة نذكر بعضها الآن **تتبع أهمية علم اللغة الحديث :**

أ- تعليم اللغة :

إننا لا نستطيع أن نقدم اللغة أية لغة إلى من يتعلمها إلا إذا درسناها دراسة فاحصة متمحصة عميقة ، صحيح أن الطفل لا يذهب إلى المدرسة إلا بعد أن يكون قد تعلم لغته المحلية (لغة الأم) إلا أننا فى العربية نواجه مشكلة أخرى ، إذ يتعلم الطفل العامية فى البيت فإذا ذهب إلى المدرسة كان عليه أن يتعلم لغة أخرى هى الفصحى التى نكتب بها ، وهى تبدو غريبة عليه ، كأنها لغة أجنبية عنه ، فماذا يمكن أن يقدم علم اللغة الحديث لمن يدرس اللغة سواء من أبنائها الذين درجوا على عامية مختلفة عن الفصحى أو من الأعاجم الذين يرنون إلى تعام العربية وفهمها بل هم يعتبرون اللسان العربى نعمة من الله لا يعرف قيمتها بنو العرب .

وهناك بعض الخدمات التى يمكن أن يقدمها علم (١) اللغة الحديث لدارس العربية :

١- إن كثيرا من مشكلات الصرف العربى والنحو يمكن حلها بسهولة إذا استفدنا من معطيات علم اللغة ، فعلى سبيل المثال إسناد الضمائر إلى الأفعال يمكن أن يتحول من قواعد كثيرة متشابكة إلى بضع قوانين صوتية من السهل أن يلم بها الطالب والأستاذ على السواء .

---

(١) يساعد علم اللغة أيضا فى صناعة المعجمات ، ووضع الأبجديات بإصلاحها .

ومن تلك القوانين قانون التقاء الساكنين ، فحرف العلة والساكن الصحيح ، إن التقيا فصوت الحركة الطويلة ، أى العلة ، فتتحول واو المد إلى ضمة وياء المد إلى كسرة ، وألف المد إلى فتحة :-

يقـــول ← يقلن = واو المـــد ← ضمـــة

يبيـــع ← يبعن = ياء المـــد ← كسرة

استشار ← استشرن = ألف المد ← فتحـة

٢- إن علم اللغة الحديث يمكن أن يدلنا على الموضوعات المناسبة للدراسة حسب حالة الطالب والغرض من تعلمه للغة العربية فالموضوعات التى يدرسها المذيع مثلا يجب أن تختلف عن الموضوعات التى يدرسها المترجم إذ الأول مهتم بالنطق الصحيح منشغل به ، فى حين أن الثانى معنى بالتركيب والدلالة ، ولذا نقدم للأول جرعة كبرى من علم الأصوات وللثانى النحو والدلالة ، وهكذا .

٣- وفى مجال دراسة الأخطاء التى يقع فيها الطالب يدرس علم اللغة هذه الأخطاء لبيان السبب والعلاج ، كما يرتبها حسب خطورتها ومدى اللبس الذى توقع فيه السامع أو القارئ ففى مجال الكتابة يخطئ الطلاب كثيرا فى كتابة همزة (١) الوصل ، وهو ما ينجم عن نطق خاطئ أيضا ، عذ تنطق فى بداية الكلام وتسقط تماما فى درجة ، أى وسطه ، ولكن كثيرا من الناس ينطقها فى الحالتين ، وهو خطأ .

والطريقة الصحيحة لكتابة همزة الوصل كما يلى :

(***اسكت - اثنان - اثنتان - ابن - ابنة - امتحان - اتحاد - اسم***) وهكذا .

ويمكن أن نقارن هذا الخطأ بخطأ آخر ، إذ يهمل بعض الناس كتابة رأس العين (ء) فى حالة همزة القطع هكذا :

---

(١) انظر مواضع همزة الوصل فى شرح عقيل ٤ / ٢٠٧ ، دار الفكر .

(اخذ - الارض - الاسلام) إذ من الضرورة أن تكتب بهذه الطريقة :

(أخذ - الأرض - الإسلام) ولكن هذا الخطأ أقل خطورة من السابق ولذا نركز على الأول ، ونهتم به ، ثم نثنى بالأقل خطورة .

وفى مجال الأخطاء يشار إلى أن كثيرا من المتحدثين بالفصحى يهملون عدة الوقف فى العربية فيظهرون حركات الأعراب والبناء ، وينونون ، وينسون أن الوقف لا يكون إلا بالسكون عدا المنون المنصوب الذى يوقف عليه بألف دون تنوين .

انظر

النطق الصحيح	النطق الخاطئ
هذا رحـــــــــل	هذا رحـــــــــلٌ
رأيت رجــــــلا	رأيت رجــــــلاً

ويلحق بقاعد الوقف هذه نطق حروف المعجم مفردة ***(ألف ياء - تاء ثاء - ...الخ)***

وليس : ***(ألفٌ - باءٌ - تاءٌ - ثاءٌ ...)*** ولا : ***(ألف - به - ته - ثه - ...) .***

وفى حالة العدد أيضا لا تنوين ، ولا إعراب ، فنعد هكذا :

(واحد - اثنان - ثلاثة - أربعة ... الخ) وليس : ***(واحدٌ - اثنانٌ - ثلاثةٌ - أربعةٌ ... الخ)*** وهكذا .

وكذلك كما هو دون تغيير ، تأمل :

النطق الصحيح	النطق الخاطئ
هذه مدرســـــة	هذه مدرســـــةٌ
إنها امــــــرأة	إنها امــــــرأةٌ

أما عند تعليم العربية لغير أبنائها فان الأمر يحتاج فضلا عما سبق إلى دراسة اللغة المحلية (لغة الأم) والمقارنة بينهما وبين العربية حتى نتبين الاتفاق والاختلاف بين اللغتين وسوف نجد أن نقاط الاختلاف هى المشكلة فنركز عليها فمثلا لا تجد فى لغة الهوسا الإفريقية العين ولا الحاء ومن ثم لا يستطيع أبناء الهوسا نطق هذين الصوتين إلا بعد معالجة طويلة

فى حين ينطقون الجيم القرآنية بطريقة صحيحة لأنها موجودة فى لغتهم ، ومن الطريف أن أبناء القاهرة لا يستطيعون نطق هذه الجيم لأنها ليست فى لهجتهم ، وإنما هى عندهم انفجارية أى أخت الكاف .

كما نحتاج إلى منهج دراسة الأخطاء وترتيبها حسب خطورتها بشكل ملح مع غير العرب حيث نركز على هذه الأخطاء لدراستها ومعرفة علاجها بعد ترتيبها لنبدأ بالأخطر فالأقل خطورة ، وهكذا نرى ما يمكن أن يسديه علم اللغة للعرب وغيرهم حين يرنون إلى تعلم تلك اللغة الشريفة .

ب- أمراض التخاطب :

يقوم جهاز النطق بإنتاج الكلام ، وأجهزة النطق الرئيسية هى :

(الحنجرة - الحلق - اللسان - الشفتان - الأنف - اللهاة - الأسنان - الحنك) فإذا أحدث عطب أو تلف لأى عضو من هذه الأعضاء ترتب عليه اضطراب فى النطق أيضا .

فاللهاة مثلا تقوم بإغلاق طريق الأنف عند مرور الهواء من طريق الفم فإذا اختلت هذه الوظيفة لسبب أو لآخر حدث ما يسمى بالخنق حيث يتسرب جزء من الهواء من الأنف وهو يسمى فى الدراسة اللغوية باسم : (الأنقمية) والعلاج يتمثل فى إصلاح العطب الموجود باللهاة سواء بالجراحة أو بغيرها .

ولا نستطيع أن تعرف على أسباب العيب النطقى إلا إذا كانت لدينا فكرة واضحة عن أصوات اللغة ، وكيفية نطق كل واحد منها بدقة شديدة ، بعدها يتقرر العلاج .

وقد يكون العيب بسبب تعود النطق الخاطئ وعدم تصحيحه فى الصغر مثل نطق اللام ياء ، أو الراء لاما ، أو غير ذلك فهذا مما يحتاج إلى خبير فى علاج أمراض التخاطب والنتائج فى مثل هذه الأحوال مشجعة ومطمئنة .

وقد يكون السبب نفسيا ، ***مثل*** : (التلعثم - التردد فى الكلام - الفأفأة - الثأثأة ... الخ) وهذا مما يحتاج إلى علاج نفسى يزرع الثقة فى نفس المريض ، ويدريه على النطق الصحيح .

ولا يستغنى طبيب أمراض التخاطب فى عمله عن خبير لغوى ، درس الأصوات وعرف أصلها من فصلها ، أو أن يكون هذا الطبيب نفسه ممن درس أصوات اللغة ، وفهم بدقة كيفية نطق كل صوت منها ، ليعرف أسباب الانحراف عنه ، والخطأ فيه .

جـ- العالمية والمحلية :

أدى استقلال كثير من بلدان العالم إلى ضرورة البحث عن لغة رسمية تستخدمها الدولة المستقلة ، فى حين أن هذه الدولة بها الكثير من اللغات ، فمثلا نيجيريا بها قرابة المائتين والخمسين ألفا فكانت اللغة الرسمية هنا مشكلة فإن اختيار لغة ما كان سيدفع أصحاب الأخرى إلى الاعتراض فكان الحل اختيار لغة المستعمر ، أى الإنجليزية ، ومن أسف أن هذا الحل اختارته كثير من البلدان التى استعمرت .

ومثل هذه المشكلة يستطيع الخبراء اللغويون دراستها ووضع حلول مناسبة لها ، فإن أرض إفريقية المعطائة لن تبخل بلغة من لغاتها العديدة لتكون رسمية بدلا من لغة المستعمر وكأننا نرفع شعار : ***(وداونى بالتى كانت هى الداء)*** ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن ناحية أخرى فإن سهولة الاتصال والمواصلات بين بلدان العالم المختلفة وظهور المنظمات الدولية كالأمم المتحدة واليونسكو وغيرهما ، وكذا المنظمات الإقليمية مثل السوق الأوربية المشتركة وحلف الأطلنطي ، والمنظومة الاشتراكية الدولية .. الخ . فضلا عن المؤتمرات والأحلاف والاتفاقات الدولية والإقليمية ، كل هذا أدى إلى التفكير فى استعمال لغة بعينها ، أو عدة لغات ، كما هو الحاصل الواقع الآن فى الأمم المتحدة وغيرها .

وقد حاول بعض العلماء اختراع لغة اصطناعية لتكون لغة عالمية تستخدم فى المنظمات والمؤتمرات الاتصالات الدولية ، مثل لغة الاسبرانتو ، ولكن هذه المحاولة لم يكتب

لها النجاح والحل المناسب أن نستعين بإحدى اللغات المنتشرة فى هذه الدنيا ، مثل العربية والإنجليزية والفرنسية .. الخ .

د- الترجمة :

ظهرت الحاجة ماسة فى هذا القرن بالذات إلى الاهتمام بالترجمة وصفها وسيلة للتفاهم بين الأمم المختلفة الألسن ، كما أدى تفجر المعرفة والمعلومات فى السنوات الأخيرة إلى محاولة ابتكار وسيلة سريعة للترجمة بواسطة الآلة .

وبرغم أننا لا نتوقع أن تقوم الآلة مقام الإنسان فى عملية الترجمة ، لأن الآلة لا تسعف فى ترجمة بعض أشكال التعبير الأدبية ، أو التى ترتبط بحضارة المجتمع ، إلا أن الآلة تؤدى مهمة كبيرة فى ترجمة الموضوعات العلمية الإخبارية ، وعلى الرغم من أن الترجمات الآلية ما زالت تراجع على أيدى المتخصصين إلا أن الأمل كبير أن يزيد مستوى الإتقان والدقة إلى درجة تجعل من الترجمة الآلية عملية مجدية .

أما الترجمة فقد أفادت كثيرا فى علم اللغة ، إذ أصبحت الترجمة علما له أصوله وأسسه ، بدلا من النظر إليها على أنها مهارة وتدريب فقط هذه بعض المجالات التى يمكن أن تفيد من علم اللغة الحديث ، والمأمول أن نستفيد منه فى مجال تدريس العربية لا بنائها وللمسلمين الذين يتشوقون لفهم كتاب ربهم ، وإتقان لغة دينهم ، كما يمكن أن يساهم علم اللغة أيضا فى تعليم النطق الصحيح للقرآن ، وبخاصة للشباب الذين يتوقون إلى تجويد القرآن وإتقان قراءته ، وفى الختام نشير مرة أخرى إلى أن علم اللغة الحديث يمكن أن يساهم مساهمة فعالة فى حل كثير من مشكلات النحو العربى والصرف وحل كثير من قضايا هذين العلمين الجليلين .

المحاضرة الرابعة

نشأة اللغـــــة

***

يعيش على هذه الأرض التى نسكنها قرابة الخمسة مليارات من الأنفس ، تختلف ألسنتهم ، وتتباين ألوانهم : (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآية للعالمين)[١٢](١) .

أما لغات المليارات الخمسة فتزيد عن أربعة آلاف لغة فى جميع أنحاء المعمورة وإن كان المشهور منها والسائد المعروف أقل من هذا العدد بكثير ، أو قل هى لغات تعد على أصابع اليد - أو اليدين إن شئت - على رأسها ، أو تاج الرأس منها العربية شعار الإسلام وأهله ، والتى أثرت على لغات الشعوب المسلمة على الإطلاق ، فضلا عن غيرها .

وإذا كان للعربية ماضيها المشرق الزاهر فإن لها حاضر يستمد من الماضى إعفاءه ويكمل مسيرته ، وبرغم كل الزوابع والرياح فإن العربية تبقى لغة عالمية ، لها حضور واضح فى كل بلد .

وعلى كل صعيد ، برغم محاولات المستعمرين بإقصائها أو تحجيمها وزرع لغاتهم فى كل المستعمرات .

ومن أهم اللغات الشائعات السائدات الصينية حيث يتحدث بها أكثر من مليار نسمة واليابانية والأوربية والفارسية ، وفى أوربا الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وفى إفريقية السواحلية والفلانية والحوصا وسوف نتحدث فيما بعد عن لغات العالم تفصيلا وإسهابا .

---

(١) سورة الروم .

وهذه اللغات كلها تنبع من أصل واحد ، وتصدر عن لغة واحدة ، حاول العلماء معرفتها فتاهوا وحاروا ، وضربوا الأخماس فى الأسداس ، وأخيرا قرروا عدم الخوض فى الموضوع .

ولا شك أن الغرب غير المهتدى بنور الدين إذا تاه وحار فهو أمر منطقى لا يتوقع غيره ، أما نحن فإننا ننظر إلى الأمير على نور الدين الحنيف ففى الغرب يسألون أنفسهم عن أصل البشرية ، ومن أين جاء وكيف تطور من المراحل المختلفة إلى الحيوانية ثم الإنسانية أخيرا ، فقال بعضهم : إن الإنسان أصله قرد ، أو نوع من القرود راقية التفكير عالية الذكاء وقال بعضهم أو بعض من يلهث خلفهم فى الشرق : الإنسان حيوان مفكر ، أو حيوان ضاحك،.. الخ وكلها تخاريف فى تخاريف .

إن الغرب الكافر إذا كان لا يدرى من أصله أو يراه قردا أو حيوانا من أى نوع أو يعتبر نفسه من الحيوانات الناطقة أو الضاحكة فهذا شأنه وله من الاعتقاد ما يريد ، ما دام قد شرد عن دين الله وهديه ، أما نحن فعلى يقين تام كامل بأصلنا ، إنه نبى من أنبياء الله ، آدم - عليه الصلاة والسلام - أسجد الله له الملائكة ونرفض رفضا باتا وصف بنى النبى الكريم آدم بأنهم حيوانات ناطقة أو ضاحكة أو غير ذلك من التخاريف .

ويترتب على ما سبق أن اللغات البشرية كلها ترجع إلى تلك اللغة البسيطة التى استخدمها أبونا آدم - عليه السلام - أو تلك الكلمات التى علمه الله إياها ، ولكن ما هى تلك الكلمات ، وكيف كانت تلك اللغة هذا أمر لا تفيد معرفته ، فهل تترك العربية ، ومشاكلها وهمومها ومسئولياتها للبحث عن لغة آدم وحواء ؟ إنه أمر غير مفيد ، ولو كان فيه فائدة لسخر الله لنا من يكتشفها ويعرفها ولكن من الظاهر أنه لا حاجة بنا إلى شئ من ذلك بقول الله

تعالى فى سورة البقرة : (وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم ، إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون) .

ويقول صاحب الضلال :

ها نحن أولاء - بعين البصيرة فى ومضات الاستشراف - نشهد ما شهده الملائكة فى الملأ الأعلى .. ها نحن أولاء نشهد طرفا من ذلك السر الإلهي العظيم الذى أودعه الله هذا الكائن البشرى وهو يسلم مقاليد الخلافة ، سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها - وهى ألفاظ منطوقة - رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة وهى قدر ، ذات قيمة كبرى فى حياة الإنسان على الأرض ، تدرك قيمتها حين تتصور الصعوبة الكبرى ، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات والمشقة فى التفاهم والتعامل ، حين يحتاج كل فرد لكى يتفاهم مع الآخرين على شئ أن يستحضر هذا الشئ بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه .

الشأن شأن نخلة فلا سبيل إلى التفاهم عليه الله باستحضار جسم النخلة ، الشأن شأن جبل على سبيل إلى التفاهم عليه إلا بالذهاب إلى الجبل الشأن شأن فرد من الناس فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بإحضار هذا الفرد من الناس ، إنها مسألة ماثلة لا تتحول الحياة نعها ! ! وإن الحياة ما كانت لتمضى فى طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات .

فأما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية لأنها لا ضرورة لها فى وظيفتهم ، ومن ثم لم توهب لهم ، فلما علم الله آدم هذا السر ، وعرض عليهم ما عرض لم يعرفوا الأسماء ، لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص .. وجهوا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم ، والاعتراف بعجزهم والإقرار بحدود علمهم ثم كان هذا التعقيب الذى يردهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم : (قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون ؟) ... صدق الله العظيم .

المحاضرة الخامسة

الفصائل اللغويـــــة

***

حاول العلماء تصنيف اللغات التى تم اكتشافها حتى يسهل حصرها ومعرفة علاقات بعضها ببعض ، وأشهر النظريات هنا نظرية مكس مولرالتس التى ترجع جميع اللغات الإنسانية أو أغلبها إلى ***ثلاث فصائل :***

١- الفصيلة الهندية الأوربيـة .

٢- الفصيلة الحامية السامية .

٣- الفصيلة الطورانيـــــــة .

وهناك نظريات أخرى لا نرى لذكرها مجالا هنا ، ونرى أن نقسم لغات البشر تقسيما جغرافيا ، ناسبين لغة إلى القارة التى نشأت فيها لغات البشر تقسيما جغرافيا ، ناسبين كل لغة إلى القارة التى نشأت فيها أى إلى موطنها الأصلى .

وهذا لا يعنى أن اللغة تبقى حبيسة موطنها التى تنسب إليه ، بل تتحرك اللغة مع أصحابها ، فقد انتقلت العربية من شبه الجزيرة إلى الشام والعراق وفارس وغيرها من بلدان آسيا ، ثم انتقلت إلى أرض الكنانة ، ومنها إلى الشمال الإفريقي والسودان ، ثم أوربة (الأندلس) .. الخ ، وهذا لا يعنى أن العربية آسيوية إفريقية أوربية ، وإنما هى فى رأينا لغة آسيوية فقط .

وليس هذا بدعا من اللغات ، فالإنجليزية مثلا انتقلت من الجزر البريطانية فى شمال غرب أوربة إلى مستعمراتها السابقة ، وخاصة استراليا وجنوب إفريقية وأمريكا ، كما انتقلت الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية إلى كثير من المستعمرات ، وإن كان بدرجات متفاوتة ، وبرغم هذا كله لا يمكن القول بأن تلك اللغات جميعا غير أوربية .

ومن الممكن أيضا أن تنتقل الكلمات من لغة إلى أخرى ، فالعربية أخذت بعض مفرداتها من العبرية والحبشية والفارسية والرومية وغيرها من اللغات ، وهكذا الشأن فى غير العربية .

كما تنتقل الظاهرات اللغوية فى لغة إلى أخرى ، أو من مجموعة من اللغات إلى مجموعة أخرى ، مثل انتقال الأصوات الشفطية - التى تنطق بشفط الهواء من خارج الجسم إلى الرئتين - من موطنها فى إفريقية الجنوبية (فى مثل لغتى الخوسا والبانتو) إلى الهنود الحمر فى وسط أمريكا وجنوبها ، حيث نجدها فى لغة أو لغتين على الأقل .

وعملية الانتقال اللغوى هذه يمكن أن تشوش على الباحث ، وتؤدى به إلى جمع لغات غير مؤتلفات مع بعضها ، اعتمادا على بعض أوجه التشابه بين تلك اللغات ، تلك الأوجه التى نجمت عن عملية الانتقال التى أشرنا إليها ، أو التى كانت بسبب الجوار بين أصحاب اللغات .

والآن نتحدث عن لغات العالم مقسمين إياها تقسيما جغرافيا قاريا ، كما يلى :

١- اللغات الإفريقية :

تقدر لغات إفريقيا بحوالى الثمانمائة لغة مستقلة ، وأهم هذه اللغات السواحلية والفلانية والهوسا واليوريا والكنورى والولوف وصنغاى ، وإليك كلمة موجزة عن اللغات الأربع الأولى، كما يلى :

(أ) السواحلية : أهم اللغات السائدات فى منطقة شرق إفريقية وبها كثير من الألفاظ والتراكيب العربية ، مما دفع بعض الباحثين إلى اعتبارها إحدى اللهجات العربية الآتية من اليمن السعيد ولكن المرجع أن السواحلية لغة إفريقية تنتمى إلى أسرة البانتو وإن تأثرت بالعربية وبخاصة بعد ظهور الإسلام .

وتكتب السواحلية كغيرها من لغات الشعوب الإسلامية بالحروف العربية وإن كانت محاولات المستعمرين لا يهنأ بالها ولا تقر عيونها إلا باستبدال الحروف

العربية باللاتينية حتى تنقطع الصلة بين تلك الشعوب وبين العرب ، وتنقصم العرى بين لغاتهم ولغة العرب ، مما يستدعى من بنى العرب المسارعة بمديد المعاونة والمساعدة لتلك الشعوب حتى تبقى الحروف العربية وتدحر الحروف اللاتينية .

إن المواطن الإفريقي يجد المطبعة اللاتينية بسهولة شديدة فإذا أراد أن يطبع كتابا بالعربية فى بلده أو بلغته المحلية مستخدما الحروف العربية فإن يجد الأمر شبه مستحيل ويستطيع العرب بإمكاناتهم المادية والتقنية أن يؤازروا تلك الشعوب التى تتمسك باستخدام الحروف العربية بل تتوق إلى تعلم لغة القرآن وإتقانها .

وعلى أية حال فإن اللغة السواحلية تنتشر فى دول شرق إفريقية وبخاصة فى تنزانيا وكينيا وأوغندا ، فهى فى الأولى لغة الصحافة والتعليم والثقافة والإدارة والنقابات والسياسة فى حين تحاول أوغندا فرض الإنجليزية بدلا من السواحلية ، أما فى كينيا فالسياسة اللغوية لا تدعم السواحلية وحدها ، إذ تستخدم تسع عشرة لغة محلية فى التعليم ، أما الإنجليزية فهى لغة التعامل المشتركة إلى جانب السواحلية .

وعلى الرغم من هذه المشكلات التى تواجه السواحلية على المستوى الرسمى فإنها على المستوى الشعبى ذات انتشار كبير ، إذ هى من أهم اللغات السائدة فى القارة الإفريقية .

(ب) الفلانية : ومن شرق إفريقيا تنتقل إلى غرب القارة حيث اللغة الفلانية التى تنتشر فى حوض نهر النيجر وبخاصة فى السنغال وتشاد وشمال نيجيريا والكاميرون ويقدر عدد القبائل الفلانية الآن بحوالى ستين مليون نسمة ، وهم يعتقدون أن أباهم عربى ، والأم روسية ، فهم يرون أن عقبة بن نافع تزوج ابنة أحد رؤساء القبائل الرومية وكانت تسمى (بج بنجو) فمن نسلهما كان الفلانيون .

وعلى أية حال فقد قام الفلانيون بجهود طيبة مشكورة لنشر اللغة العربية والإسلام في غرب إفريقية ، وقد توجهت هذه الجهود بإقامة إمبراطورية الفلانية - وتسمى أيضا خلافة صكنو - التى استمرت قرابة المائة عام فى القرن الماضى (١٨٠٤ - ١٩٠٦ م) ، وقد أسس هذه الإمبراطورية الشيخ عثمان بن فودى (ت ١٢٣٢ هـ - ١٨١٧ م) وكلمة (فودى)بالفلانية معناها الفقيه ، وكانت هذه الإمبراطورية تشمل أجزاء كبيرة من الكاميرون ونيجيريا والداهوفى والنيجر .

(جـ) الهوسا : كانت كلمة الهوسا تطلق على الشعوب والقبائل التى تسكن بين مملكة برنو شرقا والمنطقة الواقعة فى الضفة الغربية لنهر النيجر غربا ، ومن حدود مملكة أهير شمالا إلى حدود نهر بينوى جنوبا .

وتطلق كلمة الهوسا على اللغة التى تتحد بها هذه الشعوب والقبائل ، أى فى منطقة غرب إفريقية فقد كانت لغة التعامل التجارى فى تلك المنطقة ، وما تزال مستخدمة على نطاق واسع حتى [١٣](١) الآن .

والهوسا إحدى اللغات الإفريقية الثلاث التى يتكلم بها المسلمون فى إفريقية - أولها وأكثرها انتشارا اللغة العربية - وثالثها السواحلية وقد سبق الحديث عنها .

وقد تأثرت الهوسا كثيرا باللغة العربية ، وخاصة بعد انتشار الإسلام فى غربى إفريقية وكانت العلاقات القديمة بين قبائل الهوسا وبين العرب ، مما جعل لغة الهوسا أقدم اللغات الإفريقية التى تكتب الحروف العربية .

وكانت تلك الشعوب والقبائل التى تتكلم بهذه اللغة تسكن فى تلك المنطقة منذ زمن سحيق ، ويقول المؤرخون أنها كانت مجموعات زراعية تسكن فى أرض خصبة ، كل واحدة

---

(١) وبخاصة فى شمال نيجيريا .

منها مستقلة عن الأخرى ، وتجمعها كلها لغة الهوسا ثم تكاثرت وتجمعت ثم تطورت إلى ولايات عدة ، منها (كشنة - كنو - دورا - غوبر ... الخ) (١) .

(د) الكنورى : ارتبط تاريخ هذه اللغة بدولة برنو التى كان لها فى التاريخ الإفريقي دور كبير ، فقد امتدت رقعتها من واداى شرقا إلى النيجر غربا وغزان شمالا وكانت لغة الكنورى ذات انتشار كبير فى تلك المنطقة ، وبين كثير من القبائل ، إلا أن العربية زاحمتها فى الشرق الذى كان قريبا من غرب السودان ، والهوسا والفلانية [١] (٢) من الغرب والجنوب.

ونكتفى بالحديث عن تلك اللغات الإفريقية ، وقد رأينا أن التقسيم الجغرافى يفرض نفسه علينا داخل القارة ، ونأخذ الآن الحديث عن :

٢- اللغات الآسيوية :

تشتمل القارة الآسيوية على لغات عديدة متنوعة ، ويكفى أن نعرف أن بالهند وحدها ١٦٥٢ لغة مستقلة كما سيأتى .

ومن اللغات الآسيوية الهندية والصينية والفارسية والكردية والأفغانية واللغات السامية التى تنقسم إلى مجموعتين ، شمالية : (الأكادية - الأشورية - اللغات الكنانية ، أى العبرية

---

(١) انظر : حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا للدكتور / شيخو أحمد سعيد غلادنشى ، ص ٤٠ – م٤ ، دار المعارف بالقاهرة .

(٢) اندلعت المعارك الدامية بين مملكة برنو وبين الإمبراطورية الفلانية التى سبق الحديث عنها ، انظر : إمبراطورية البرنو الإسلامية للدكتور إبراهيم طرخان ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٥ م .

والفينيقية - اللغات الآرامية) والجنوبية : (العربية - اليمنية [١٤](١) القديمة .)

ومن الملاحظ كثرة الصراعات بين هذه اللغات ، فقد صرعت الآرامية اللغة الأكاديمية أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، وانتصرت على العبرية فى القرن نفسه ، وكذلك دخلت العربية فى صراع مع أخواتها ، فصرعت اليمنية قبل ظهور الإسلام ثم صرعت الآرامية ، فلم يأت القرن الثانى الهجرى حتى انزوت تلك اللغة فى عدة مناطق منعزلة ، تكاد لا تذكر وكذلك دخلت العربية فى صراع مع لغات أخرى ، ***مثل :***

التركية ، والفارسية والهندية ، وغيرها من لغات البلاد التى دخلها الإسلام .

٣- اللغات الأوربية :

يمكن تقسيم اللغات الأوربية إلى مجموعات أهمها :

أ - اللغات اليونانية : وتشمل اليونانية القديمة والحديثة .

ب- اللغات الإيطالية : وتشمل اللغات الأسكية واللغات الرومانية - المتفرعة عن اللاتينية - الفرنسية والبرتغالية والإيطالية والأسبانية ولغة رومانيا .

جـ- اللغات الكلتية : وقد غلبتها الفرنسية والإنجليزية والأسبانية وإن كان لها بقايا فى اللهجات المحلية بأيرلندا وويل وفرنسا .

د - اللغات الجرمانية : وتشمل لغات أيساند والدانمرك والسويد والنرويج والإنجليزية السكسونية والهولندية والألمانية .

---

(١) نرجح أن قرب الجزيرة العربية (الحجاز ونجد واليمن) كانت المهد الأول للساميين ، ومنها نزحوا إلى الشام أو العراق ، أو حتى الحبشة .

هـ- اللغات البلطيقية : وتشمل الروسية والتشكيلية والكرواتية والبلغاريا الحديثة ، وبعض اللغات القديمة فى شرق أوربا ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن لغات العالم مرجئين الحديث عن لغات بقية القارات إلى متسع من المقام لتناول اللغات التى تخص السكان الأصليين لقارات استراليا والأمريكتين الشمالية والجنوبية [1] (١) .

---

(١) فإن اللغات الأوربية هنا لتمثل الإنجليزية أو الأسبانية أو الفرنسية وافدة على تلك البلاد ، وقد يتساءل القارئ أين سنضع لغات الجزر المنتشرة فى البحار والمحيطات ؟ إنها توضع مع أقرب القارات إليها التى انفعلت معها وتأثرت بها ، فالجزر البريطانية مثلا تنضم لغاتها ولهجاتها إلى اللغات الأوربية كما رأينا وهكذا فى بقية الجزر التى يسكنها البشر فى شتى البحار والمحيطات .

المحاضرة السادسة

لغتنا العربيـــة

***

عرفنا مما سبق أن لغتنا العربية إحدى اللغات السامية الجنوبية على أن وضع العرب كان ممتازا عن سائر أخواتها السلميات ، إذ أنها قد انعزلت فى بيئاتها الصحراوية وابتعدت عن الاحتكاك باللغات المجاورة بشكل واضح ، لذا يقرر اللغويون أنها أقرب الساميات إلى السامية الأم على فرض وجودها - لأنها احتفظن بعدة عناصر امتازت بها الفصيلة لسامية على سائر اللغات المهزومة ثم انقرضت هذه العناصر من بقية أخواتها الساميات كالعبرية والآرامية التى كانت مرحلة من مراحلها التاريخية .

وأبرز مثال على ذلك ظاهرة الإعراب فى العربية فهى ظاهرة سامية قديمة انقرضت من سائر اللغات السامية عدا بعض البقايا فى الأكادية ، وقد احتفظت العربية بظاهرة الإعراب لانعزالها فى الصحراء بعيدا عن عوامل التأثير باللغات المجاورة لها .

ولكن كيف نشأت العربية ، ومتى انفصلت عن السامية الأم ، وهل نعرف شيئا عن طفولة تلك اللغة ؟ إن أول ما يطالعنا الشعر والنثر فى العصر الجاهلى ولا يمكن أن يكون ذلك صورة لطفولة العربية ، فان أدب هذه الفترة - التى لا تتجاوز قرنين قبل الإسلام - لا يعطى صورة للغة فى طفولتها ، بل على العكس يعطى للغة فى قمة نضجها وفتوتها وشبابها فمن منا لم يقرأ المعلقات وغير المعلقات والحكم والأمثال والخطب التى رويت عن العصر الجاهلى.

ومن المؤكد أن لغتنا العربية - كغيرها من لغات العالم - مرت بأدوار الميلاد والطفولة إلى أن وقفت على قدميها لتصبح شابة قوية كما ترى الشعر الجاهلى والنشر أيضا .

وقد حاول بعض المستشرقين أن يكشفوا فى حفرياتهم شيئا من تاريخ العربية ومن ذلك أنهم قدموا لنا بعض النقوش[1] (١) التى قالوا إن ما وجد بها من نصوص يعد تصوير الطفولة لهذه اللغة ، ولكن التحقيق العلمى كشف أن هذه النصوص تنتمى إلى اللغة الآرامية التى هى مرحلة عربية إلى جانب أنها ضحلة ، وأكثر مضمونها أسماء أشخاص ، ولا تعطى فكرة واضحة عن لغتنا .

وهكذا نقف فى عماية وغموض إذا ما حاولنا كشف شئ ولو يسير عن طفولة العربية التى استمرت عدة قرون إلى أن شبت عن الطرق فكانت هذه اللغة المثالية الراقية التى تتمثل فى الأدب الجاهلى وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فإننا نصرف النظر مؤقتا عن طفولة العربية لتدرس الجزء المعلوم من تاريخ لغتنا وصولا إلى الجزء المجهول ، هذه الدراسة التى تسير فى ***ثلاث محاور هى :***

أولا : دراسة ما جاء فى كتب الأدب واللغة عن تلك اللهجات الغربية القديمة .

ثانيا : دراسة اللهجات العربية الحديثة فهى تلقى الضوء على كثير من حقائق العربية فصحاها ولهجاتها .

ثالثا : دراسة القراءات القرآنية وهى معين لا ينضب لدراسة العربية على المستويين الفصيح واللهجى .

ونشير هنا إلى بعض المجهودات والمؤلفات فى هذه المجال ، وأول ما يجب أن نبدأ به هنا هو المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس الذى أصل الدرس اللغوى الحديث فى مصر

---

(١) منها النقوش اللحيانية والصفوية والثمودية ، فالأولى تنسب إلى قبائل لحيان ، والثانية إلى منطقة الصفا ، والثالثة إلى قبائل ثمود التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، انظر تفاصيل الحديث عن عربية النقوش فى كتاب فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٩٤ وما بعدها .

وأصدر أول مؤلف عربى حديث فى الأصوات اللغوية بالإضافة إلى كثير من المؤلفات فى مجال علم اللغة الحديث مثل كتابه من أسرار اللغة وكتاب دلالة الألفاظ .

وبالمثل فى مجال اللهجات العربية فقد كان كتابه القيم فى اللهجات العربية " أول مؤلف عربى حديث يدرس اللهجات العربية بطريقة علمية حديثة معتمدا على القوانين اللغوية العامة التى تطبق على أية لغة من اللغات ومعتمدا على ما جمعه عن اللهجات العربية من كتب الأدب واللغة وربما القراءات وكان هذا المؤلف وما زال حتى الآن مصدرا هاما من مصادر دراسة اللهجات العربية ، لا يستغنى عن الرجوع إلى باحث حديث .

وقد سار فى المحور الثانى وهو دراسة اللهجات الحديثة فريق من الباحثين وبخاصة طلاب الدراسات العليا فكتب الدكتور كمال بشر فى اللهجة اللبنانية والدكتور عبد العزيز مطر عن لهجة البدو فى ساحل مريوط ولا زالت رسائل الماجستير والدكتوراه تتابع فى هذا المجال.

أما محور القراءات فقد أخذه على عاتقه تلميذ للدكتور أنيس هو أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين فقد نال الماجستير عن دراسة صوتية فى قراءة أبى عمرو ١٩٦٢ والدكتوراه عن دراسة فى القراءات الشاذة ناقش فهيا قضايا هامة فى العربية مثل الهمزة وأصوات المد .... الخ هذه .

وقد سارع على خط الدكتور عبد الصبور تلامذته فى الماجستير والدكتوراه فكانت أول رسالة تسجل معه هنا فى مصر بعد عودته من الكويت ١٩٧٣ رسالة ماجستير عن قراءة المدينة المنورة ، ثم تتابعت الرسائل بعد ذلك فى مجال القراءات ، فاعد معه طالب عراقى فى رسالة ماجستير عن الرسم المصحفى أو الرسم العثمانى ، ثم رسالتى للدكتوراه عن قراءة الأربعة شواذ وهكذا تتابع القافلة سيرها فى محور القراءات القرآنية .

ومن المهم هنا الإشارة إلى كتاب اللهجات العربية فى القراءات القرآنية للدكتور عبد الراجحى الذى استفاد كثيرا من كتاب الدكتور إبراهيم أنيس فى اللهجات العربية كما أفدت من الأول فى دراسة قراءة أهل المدينة .

ثانيا : نشير إلى بعض الحقائق فيما يتصل بالعرب أنفسهم قبل الأسرة لقد كان العرب آنذاك ينقسمون إلى قسمين ، القبائل المتحضرة والقبائل البادية .

القسم الأول : يتكون من قبائل ذات حضارة وإمكانيات مادية وأدبية كبيرة وهذه كانت تسكن المدن مثل مكة ويثرب والحواضر اليمنية وما جاور الفرس أو الروم وأهم ما يعنينا من القبائل شمال الجزيرة وغربها ، وهى قبائل قريش وهذيل وثقيف والأوس والخزرج وغيرها .

والقسم الثانى : يتكون من قبائل أكثر بداوة ، وهى كثيرة التنقل بحثا عن الأمن والاستقرار والمرعى وقد كانت هذه القبائل تتركز تقريبا فى شرق الجزيرة ووسطها ومن أشهرها: تميم وأسد وقيس .

ومما تجدر الإشارة إليه أن لهجات القبائل المتحضرة كانت تختلف عن لهجات القبائل البادية ، بل ربما تتعارض الظواهر اللغوية بين الحصر والبدو فبينما نجد الفتح وعدم الميل إلى الهمز عند الأولين نجد عكس ذلك عند البدو فنجد عندهم الإمالة والهمز ، وهكذا فى كثير من الظواهر اللغوية ونجد تفصيل ذلك فى كتاب الدكتور أنيس اللهجات العربية .

وفى تلك الفترة التى سبقت الإسلام كانت العربية تتهيأ لنزول القرآن الكريم وكانت الصورة كما يلى :

إن العربية - كغيرها من اللغات - كان بها لهجت متعددة وفى نفس الوقت كان لها لغة مشتركة تستخدم في مجال أجدى من القول وحين يتفاهم العرب من قبائل مختلفة اللهجات وكانت هناك عوامل تدفع إلى اتساع الشقة بين تلك اللهجات وعوامل أخرى تدفع إلى اصطناع

لهجة مشتركة يستخدمها العرب جميعا ، وفى نفس الوقت تضيق الهوة بين لهجات القبائل المختلفة .

أما هذه العوامل الداعية إلى اتساع الهوة بين اللهجات فكانت انقسام القبائل إلى متحضرة وبادية لكل منها خصائصه وبادية لكل منها خصائصه وكانت يطلق على الأولى أحيانا القبائل الحجازية أو الحجاز وعلى الثانية قبائل تميم أو تميم ، فالحجاز إذا رمز البيئة المتحضرة وتميم رمز البيئة البادية .

ومنها أيضا حياة العزلة التى كانت تعيشها القبائل واعتزاز كل منها بتقاليده الاجتماعية واللغوية ، ومنها أيضا أن الأطفال فى ذلك المجتمع كانوا بعيدين عن رعاية الأب أو الأم المشغولين عنه بالرعى وجلب القوت ومن ثم كان الصغار ينطلقون فى الكلام دون أن يجدوا من يصحح لهم أخطاءهم إذا وقعوا فى أى خطأ لغوى .

على أية حال فإن جميع القبائل العربية لم تكن على هذه الشاكلة فقد كانت فبائل توفرت لها وسائل الاستقرار ، ومن الطبيعى أن تبطئ حركة تطور اللغة ، وتضيق حدة الخلاف بين اللهجات فى هذا الوسط المستقر .

وأما ما دفع إلى التوحد والاتجاه نحو عربية مشتركة فهو إحساس الناس آنذاك فى أرجاء الجزيرة العربية بأهمية الصلات التى تربطهم ، والتى تضمن لهم حماية فعالة ضد أى غزو خارجى فنشطت هذه الصلات فى صورة تبادل تجارى وأدبى حيث كانت تقام فى الأسواق التجارية ندوات يعرض فيها شعراء القبائل الوافدة قصائدهم وكان النقاد والمحكمون يوجهون الشعراء إلى الوجهة الصحيحة حدث هذا فى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز وخيبر.

وعن طريق هذه اللقاءات الأدبية تكونت للعرب لغة مشتركة وتقاليد فصحى ، وهى خير ما جاءت به اللهجات العربية المختلفة فأضافته إلى لسان قريش التى كانت تسكن جوار الكعبة فمنحها هذا الجوار سلطة روحية وأدبية .

ومن ثم فإن اللغة المشتركة ليست هى لهجة قريش فهذه كان شأنها شأن سائر لهجات العرب - وإن تكن أرقاها - وإنما كانت العربية المشتركة مزيجا من تقاليد اللهجات ، التقاليد غير الصفة ، إلى جانب غلبة الطابع القرشى .

واللغة المشتركة لا تمنع العربى من أن يتكلم بلهجة قبيلته الخاصة فى البيت أو الحى ومع الأسرة وغيرها من أفراد القبيلة أما اللغة المشتركة فقد كان يلجأ إليها فى المجال الجدى من القول ، وحين يتحدث إلى غير رجال قبيلته وبهذه اللغة كان الأدب الجاهلى شعره ونثره .

وقد كان توجد اللهجات العربية على المستوى الأدبى فى صورة لغة مشتركة كان ذلك مقدمة ضرورية لنزول القرآن بتلك اللغة الصافية فليس فى القرآن أثر من آثار اللهجات الكثيرة أو شيئا من الأوثاب اللهجية فلقد كان الشعر ديوان العرب جميعا على اختلاف قبائلهم ، وكان القرآن من بعد كتاب العرب جميعا ، بل كتاب البشرية كلها فلا بد أن يكون صورة أدبية مشرقة قمة فى بلاغه وإعجازه ، وهذا ما وسم به القرآن من أول آية فيه إلى آخرها ، وهو ما شهدت به الأجيال وأقرت به .

المحاضرة السابعة

اللهجات العربيـــــــــــة

قبيل الإســـــــــلام

لمحة سريعة

***

الواقع أن اللهجات فى أية لغة من اللغات - لا يفصل بينها وبين اللغة المشتركة سوى بعض الصفات الصوتية خاصة واللغوية بوجه عام ، فاللهجة هى :

مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى الصفات جميع أفراد هذه البيئة ، وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأوسع تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها ، إلا أنها جميعا تشترك فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض وفهم ما قد يدور من حديث ولكن هذا الفهم يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات ، وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات هى التى اصطلح على تسميتها باللغة فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص .

ويكون الفرق بين اللهجات أو بين بعضها وبين اللغة المشتركة فى مجموعها من الصفات اللغوية والصوتية بصفة خاصة ، ذات الصيغة المحلية مثل الاختلاف فى مخرج بعض الأصوات الصامتة ، كنطق القاف فى اللهجات العربية وفى الفصحى أو الاختلاف فى نطق بعض الحركات " الأصوات الصائتة " أو اختلاف قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة وكذلك اختلاف النغمة الموسيقية .

والعربية كغيرها من اللغات بها لهجات مختلفة إضافة إلى لغة مشتركة يمكن أن يتكلمها العرب جميعا ويفهمونها فى أى قطر من أقطارهم وإن كانت لا تسلم من بعض الأوشاب اللهجية - فى بعض الأحيان - فالعراقى مثلا تختلف فصحاه عن فصحى اللبنانى بحيث تدل أن المتكلم عراقى أو لبنانى ، إلا أن العربية ربما تنفرد عن كثير من لغات العالم بكثرة لهجاتها

واتساع الفرق بين تلك اللهجات نفسها وبين اللهجات وبين الفصحى وذلك لأسباب كثيرة لا محل لذكرها هنا .

وقبل الإسلام أيضا - كما ذكرنا - كانت العربية كغيرها من اللغات ، بها لهجات متعددة إضافة إلى اللغة المشتركة ، إلا أن هذه اللهجات كغيرها من عناصر تاريخ العربية لم يحظ بالتدوين أو بعناية تتناسب مع أهميته وبخاصة فى طفولة العربية وإبان نشأتها فيما قبل الشعر الجاهلى ، وزاد هذا الإهمال فيما يختص باللهجات حين اهتم الناس باللغة المشتركة وأثبتوا بها نصوصهم وأشعارهم وحتى فى الوقت الحاضر لا تستخدم اللهجات فى الكتابة العلمية أو الأدبية بل نلجأ إلى اللغة المشتركة " الفصحى " عند الكتابة .

وبرغم ذلك كله فقد حفظ لنا تراثنا العربى أخبارا متناثرة عن اللهجات العربية القديمة وذلك من خلال كتب اللغة والأدب والقراءات والتفسير وهناك أشهر ما روى عن تلك اللهجات العربية القديمة :

روى عن لهجة تميم أخبارا ذات أهمية فى هذا الشأن ، وتميم رمز للبيئة البدوية بشكل عام ، فى مقابل قريش وأهل الحجاز الذين يمثلون البيئة الحضرية .

كانت تميم تنطق بعض الفتحات الطويلة والقصيرة ، ممالة نحو الكسرة ، وهو ما يعرف فى الدراسات اللغوية بمظاهر الإمالة ، كما كانت تدغم بعض الأصوات [1] (١) فى بعض إذا كان الصوتان متقاربين أو متجانسين أو متماثلين واتصلا مباشرة فحيث كانت قريش وأهل الحجاز ينطقون الأصوات واضحة متأنية كانت هذه القبائل تسرع فى نطقها للأصوات فى

---

(١) انظر تفصيل مجموع الإدغام فى الأصوات فى قراءة أبى عمرو للدكتور عبد الحميد شاهين " رسالة ماجستير بدار العلوم " .

بعض الأحيان ومن أمثلة ذلك أنتختم " وقد تمثلت هذه الظاهرة بمختلف أشكالها فى القراءات القرآنية ، ففى قراءة أبى عمرو بن العلاء كان الإدغام بنوعيه الصغيرة والكبيرة ، وفى قراءة المدينة عند أبى جعفر ونافع كان الإدغام فى أضيق نطاق بل إن نافع بن أبى نعيم لم يدغم إلا ما كان إظهاره خروجا عن كلام العرب فقد كانت قرائته تمثل القمة فى ظاهرة الإظهار المقابلة للإدغام .

ونسبت إلى قبيلة تميم وقيس عيلان ظاهرة صوتية تسمى " العنعنة " وهى قلب الهمزة المفتوحة المبدوء بها عينا ، ***ومن ذلك قولها :***

أشبت عنك رسول الله

يريدون أشهد أنك رسول الله فإذا كروا رجعوا إلى الهمزة ، والسبب فى قلب الهمزة عينا قرب مخرجيا ، فإن الهمزة صوت حنجرى والعين صوت حلقى والحنجرة والصوت متجاوران ، ولهذه الظاهرة نظائر فى اللهجات العامية حيث نجد الصعيدى يقلب الهمزة عينا فى " لع " بدلا من " لا " وفى بعض الأحيان يحدث العكس ، كما نجد بعض العوام ينطقون :
(المأهد- الأهدة - أهد الله) بدلا من : ***(المعهد - العهدة - عهد الله)*** على أية حال فإن المرء لغة فى التمييز - أى نطق الهمزة - هى التى نقلبها إلى عين .

ونسب إلى هذيل ظاهرة أخرى هى قلب الحاء عينا ، يقول بنو هذيل مثلا : ***(اللعم الأحمر أعسن من اللعم الأبيض)*** يريدون ***(اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض)*** ويقال إن قراءة ابن مسعود - رضى الله عنه - فى قوله تعالى : (حتى حين) من آثار اللهجة الهذلية وإن كانت هذه القراءة تعتبر شاذة الآن .

والسبب فى تحول الحاء إلى عين هنا أنها صوتان متماثلان تماما ، لا فرق بينهما لا فى الجهر والهمس ، بمعنى أن الحاء إذا طرأ عليها جهر - أى تذبذب معها الوتران الصوتيان - أصبحت عينا ، وإذا حدث للأخيرة إهماس صارت حاء وهكذا .

وينسبون إلى لهجات اليمن قلب السين تاء فيقولون : النات فى كلمة ***" الناس "*** والنعات فى ***" النعاس "*** والسبب فى ذلك قرب مخرجيهما الشديد إضافة إلى أنهما لا يفترقان إلا فى أن التاء انفجارية والسين احتكاكية فهما يتفقان فى الهمس ، فكلاهما صوتان مهموسان.

كما ينسب إلى لهجات اليمن النطق بما يشبه الجيم القاهرية فى مقابل الجيم القرآنية التى نجدها فى قراءة القرآن الكريم عند القراء المصريين المحيدين ، كما نجدها فى لهجات الصعيد والشرقية والريف بصفة عامة .

كما ينسب الميل إلى الهمز إلى تميم والبيئة البدوية عامة ، كذلك ينسب الحرص على التخطى منها إلى الحضر وأهل الحجاز ، وبخاصة قريش .

ولا ريب أن هذه الظواهر السابقة - أو العينات من الظواهر - تحتاج إلى أبحاث ودراسات مستفيضة غير أن المقام لا يتسع ، وحسبنا لا نعلم أن ظاهرة واحدة على الهمزة يتضمن لها رسالة دكتوراه ، وكذلك ظاهرة الإمالة خصصت لها رسالة ماجستير .

وقد استطاع المرحوم الدكتور أنيس فى كتابه " فى اللهجات العربية والذى أشرنا إليه آنفا استطاع أن يفسر ظواهر لهجية عديدة مما روى فى كتب اللغة والأدب ، وخرج من دراسته بتحديد الخطوط العامة التى تميز لهجات البدو عن لهجات الحضر ، وهو أمر يقوم - فى كثير

من مواضعه - على المقارنة الصوتية كما يعتمد على نتائج الدراسات الاجتماعية فى العصر الحديث .

وما وصل إليه الدكتور أنيس يفيد أيضا فى دراسة اللهجات الحديثة ، وهى كثيرة جدا فى مصر وفى خارجها ، ودراسة هذه اللهجات الحديثة مقدمة ضرورية لأى جهد فى طريق توحيد ألسنة العرب تمهيدا للوحدة العربية .

وبرغم أننا لا نقلل من شأن الوحدة اللغوية بين العرب إلا أننا نرى أن القوم لا تجمعهم وحدة اللسان قدر ما تجمعهم وحدة القلوب والعواطف والمشاعر فقلوب العرب لا تتحد إلا على الحنفية السمحاء الإسلام .

المحاضرة الثامنة

العربية والعروبـــة

رؤية تاريخية وصفيـــة

***

تمتاز العربية عن غيرها من لغات العالم باتساع المساحة الزمانية والمكانية لها فهى تمتد قبل الإسلام بقرون ، تمتد إلى ما شاء الله ، فضلا عن اتساع رقعتها من الجزيرة العربية إلى كل فجاج العالم وأركانه ، فقد كانت العربية فى السابق لغة الأدب والعلم والدين الخاتم ، وقد يتوهم بعض الناس أن العربية بعد تلك الحرب الاستعمارية قد تخلت عن مكانها ومكانتها للغات المستعمرين ، ولكنها لا زالت حتى هذه اللحظة يرنو إلى تعليمها الأعداء والأصحاب على السواء [١٥](١) أما الأعداء فمن باب : (اعرف عدوت) أما الآخرون فهى لغة دينهم ، وشعاره ، وشعار أهله .

والعداء ضد العربية ليس موجها ضد لغة أو قوم ، وإنما هو موجه بالدرجة الأولى إلى هذا الدين الذى تحمله العربية ، وهذا التراث العظيم الذى تنقله إلى الأجيال .

---

(١) وإذا كان نفوذ العربية تقلص عن بعض أجزاء من هذا العالم ، العصر الحديث فإن العرب – سواء الأغنياء منهم كالسعوديين والكويتيين ، أو الفقراء كالمصريين والسودانيين – قد ساحوا فى الدنيا كلها ويكفى أن نعرف أن بالبرازيل وحدها ثلاثة ملايين لبنانى ، يقول أحد المصريين الذين ذهبوا إلى ألمانيا (لقد كان العرب كثرة فى المدينة التى أقمنا بها حتى كنا نقول ما الذى جاء بهؤلاء الألمان ؟) لكثرة العرب .

على أية حال فإننا نرى أن اتساع المساحة الزمنية والمكانية هو من أهم مميزات لغتنا العربية ، وهو أمر له تأثير عظيم على طبيعة هذه اللغة وعلى قوانينها وقواعدها ، ويجب أن يكون دائما نصب أعيننا .

وترتيبا على الحقيقة السابقة فإن اللغة العربية تعنى كل ما قاله العرب أو المتقربون منذ كانت هذه اللغة حتى الآن ، سواء فى ذلك اللهجات العربية ، القديمة منها والحديثة ، أو اللغة المشتركة التى تسمى الفصحى كل ذلك ، داخل ضمن إطار هذه اللغة الشريفة .

وعليه فإن هذه اللهجات العامية المنتشرة فى كافة أرجاء العالم العربى هى جزء لا يتجزأ من العربية ، والتى لا تعنى كما يتوهم الواهمون - الفصحى فقط ، أو العربية الكلاسيكية ، كما يحلو للبعض أن يسميها .

ولكن ترى ماذا كانت تعنى كلمة العرب ؟

إن اسم العرب فى الأصل كان اسما لقوم جمعوا ثلاث أوصاف هى :

١- أن لسانهم [١٦](١) كان عربيا .

٢- أنهم كانوا من أولاد العرب .

٣- أن مساكنهم كانت شبه الجزيرة العربية ، وفى هذه الأرض كانت العرب حين بعث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقبله ، فلما جاء الإسلام وفتحت المدن والأمصار سكن العرب بسائر البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وهنا تغيرت الأوضاع والمعايير ذلك أن العربية حلت محل غيرها من ديار الإسلام ، وأصبح عامة الناس فى هذه الديار لا يعرفون غير العربية لغة لهم فى حياتهم ، وفى جميع شئونهم ، وفى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية لم يعد لصفة العروبة شرط غير الشرط الأول والأهم ، وهو عروبة اللغة واللسان ،

---

(١) استخدم هنا المصطلح القرآنى المعبر عن اللغة ، وهو اللسان .

وهو ما تعبر عنه كثير من الأحاديث والآثار ، كما فى قول النبى - صلى الله عليه وسلم : (وليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى) [١٧](١)
.

وعليه فكل من تعرب لسانه فهو عربى ، والمقصود بتعرب اللسان استخدام العربية فى مختلف مناحى الحياة ومجالاتها ، حتى لو عاش الفرد بين مجتمع غير عربى ، ولكنه يحافظ على عربيته فى البيت ومع الأهل والأصدقاء والمعارف ، فالأسرة العربية التى تذهب إلى أى بلد من بلاد الدنيا لا تفقد عروبتها إذا لم تتخل عن العربية ، ولو فى نطاق العرب
أو المتعربين الذين يمكنهم أن يستخدموا العربية مع العرب ، ثم يعودون إلى لغاتهم الخاصة مع أهلهم فى البيت وفى السوق ، كما نجد مثلا الأفارقة وغيرهم الذين يمكنهم الحديث مع العرب بلغة القرآن ، ثم يعودون إلى لغاتهم بع ذلك حين يتحدثون مع أهلهم .

وما يستخدمه هؤلاء المتعربون داخل أيضا ضمن اللغة العربية وهو جزء لا يتجزأ منها وإن كان المستخدم غير عربى ، ولا يقال إن هؤلاء الناس أفسدوا اللغة ، لأن كل الأقوام يتمنون أن يتكلم العالم ، أو الجزء الأكبر منه بلغتهم.

ومن الطبيعى أن المتحدث الأجنبى يحمل إلى اللغة التى يتكلمها ما تيسر له من خصائص لغته الأصلية ، فالعربى حين يجيد الإنجليزية يفرض على هذه اللغة كثيرا من سمات العربية الصوتية والنحوية ولا يمكن أن يقال إذا تعلم العرب - ولاشك أنه حلم الإنجليز كلهم - اللغة الإنجليزية أن يقال إنهم أفسدوا اللغة الإنجليزية .

---

(١) انظر الأصبهانى الشاب قارئ المدينة ، مقال بمجلة جامعة بابيرو بنيجيريا للدكتور / أحمد أبو الخير .

ولذا فإن ما يسمى فإفساد الموالى للغة العربية وظواهرها أمر غير وارد هنا لقد كانت اللغة العربية جيمة هذه الجزيرة ، وحين خرجت إلى العالم كله ، وبدأت تصارع اللغات الأخرى حتى صرعتها وتفرعت ألسنة الشعوب المختلفة ، ولكن هذه اللغات التى صرعت بقيت تأثيراتها المختلفة على عربية الشعوب المسلمة ، وهذه حقيقة لغوية ، لا يمكن إنكارها أو تجاهلها .

ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الموالى الذين اتهموا بإفساد ظواهر العربية قاموا بأعمال كبرى عملاقة ، تبقى من معالم التراث العربى والإنسانى ويكفى أن نذكر القارئ هنا بسيبويه صاحب الكتاب ، وبالقراء السبعة للقرآن الذين كانوا جميعا من الموالى عدا اثنين فقط من العرب ، هما عبد الله ابن عامر وابن العلاء فهل يقال إن هؤلاء قد أفسدوا ظواهر العربية**! !** .

وإذا كانت بعض الأصوات العربية عصية على نطق هؤلاء المتعربين أو ادخلوا بعض مفرداتهم أو تراكيبهم اللغوية فى العربية فهل يعنى هذا أنهم أفسدوا اللغة **! !**

إن حديث الأحرف السبعة الذى ينص على أن القرآن الكريم أنزل على سبعة أحرف وعلى كل مسلم أن يقرأ كما تيسر [١٨](١) إن هذا الحديث اعتراف بتلك الحقيقة الآنفة الذكر فإن بعض الناس لا يستطيع أن يقرأ القرآن إلا كما تعود مع أصوات لغته أو لهجته ، ولا يمكن التحول عنهما ، وفى هذه الحالة فليقرأ كما يستطيع وكما يتيسر له ، مع محاولة إجادة النطق القرآنى ، فإن الماهر بالقرآن سيكون مع السفرة الكرام البررة ، إن حديث الأحرف السبعة دليل ناصع على الواقعية اللغوية كما نراها .

صحيح أن اتساع المساحة الزمنية والمكانية للعربية يفرض على أبناء هذه اللغة مسئوليات كبرى وجسام ، ويثير بعض المشكلات اللغوية التى ينبغى أن تواجهها بالدراسة العميقة المتأنية حتى يمكن إيجاد الحلول العلمية لها ، ولكن لا غنى ولا فكاك من انتشار العربية

---

(١) انظر رسالتنا للدكتوراه .

فى فجاج الدنيا كلها والأرجاء ، ولا يمكن أن يقابل العرب وهذا الانتشار باتهام من يتعرف أو يتعلم العربية بأنه أفسد هذه اللغة الشريفة . وعلى ذكر مشكلات العربية فإننا بحمد الله ومنه ليس لدينا مشكلات لغوية كما تجد فى بلاد الدنيا الأخرى ، ففى نيجيريا مثلا ١٤٨ لغة مختلفة حسب عدد القبائل ، صحيح أن بعض هذه اللغات سائدة منتشرة يتكلمها ملايين النيجيريين ، والبقية الباقية لغات أقلية ، يتكلمها بضعة آلاف أو أقل ، ولكنها على أية حال لغات مختلفات مستقلات .

أما فى الهند فقد جاء فى رسالة اليونسكو [١٩](١) : (تبين من تعداد السكان الذى أجرى عام ١٩٦١ م أن هناك ١٦٥٢ لغة أما فى الهند ، هى بمثابة رموز للذاتية ، دون أن تكون بالضرورة لغات بالمعنى الدقيق للعبارة ، وهناك عدد يتراوح بين ٤٠٠ إلى ٧٠٠ لغة تبعا للطريقة التى تتبع فى حسابها ، ينص الملحق الثامن للدستور الهندى على أنه يوجد - إلى جانب السنسكرتية ، والإنجليزية وهى اللغة الرسمية الثانية فى جمهورية الهند - يوجد ١٣ لغة رئيسية) أما اللغات الرسمية فهى ثلاث فى كل ولاية ، الهندية والإنجليزية واللغة الإقليمية للولاية .

وفى الهند ثمانية نظم رئيسية للكتابة ، ومجموعة كبيرة من النظم الثانوية تنتمى إلى اللاتينية والعربية والسنسكريتية ، فهل يستوى كل هذا مع الظروف اللغوية السائدة فى العالم العربى حيث لغة واحدة سائدة ، ونظام كتابى واحد ، بقى على مر السنين الدهور برغم شراسة المعارك التى تستمر إلى هذه اللحظة التى نعيشها .

أما الكتابة العربية فهى أجمل واد فى نظم الكتابة فى العالم ، وقد حاول المستعمرون وأذنابهم محاربة هذا النظام الكتابى بشتى الطرق وفى كل فج من فجاج الدنيا وأرجائها ، ولذا فإن أى مساس بالكتابة العربية مرفوض ، دون نقاش ولا نقص ولا إبرام .

---

(١) العدد ٢٦٦ .

على أية حال فإن العربية تتسع لكل شعوب الدنيا ولينطق كل إنسان حسب وسعه وجهده ، فهو مأجور على ذلك ، لأنه يتعلم لغة دينه ، أما المشكلات اللغوية المترتبة على اتساع نطاق العربية فإن علم اللغة الحديث يتولاها بالدراسة ، وتقديم الحلول المناسبة لقد واجهت العربية فى العصر الحديث تحديات خطيرة ، لقد جاءت نفسها أمام ألفاظ كثيرة وتراكيب حملتها اللغات الأوربية الوافدة مع الاستعمار ، ومسميات جديدة لا عهد للعربية بها فاستطاعت الوفاء بكل ما أمله الناس فيها ، فعربت بعض الكلمات مثل : الترام - الأتوبيس - السيارة الأجرة بدلا من : كوينية - خوجة - وابور - تاكسى .

كما دخلت تعبيرات كثيرة من الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوربية إلى العربية ، مثل قولنا : (أنا كعربى[1] (١)) .

مترجم عن : I am as an Arabic ومثل هذه الأشياء يناقشها علماء العربية ويعينون وقعها من الخطأ أو الصواب ويشيرون إلى الاستعمال العربى الصحيح .

ولقد عانت العربية فى فترة الاحتلال الأوربى من حرب ضروس سواء فى العالم العالمى أو فى غيره ، وكانت المعركة فى العالم العربى تتمثل فى أن العربية الفصحى هى سبب من أسباب تأخر العالم العربى ، أو من أهم الأسباب ، ولذا فالحل هو إطراحها ونبذها كما فعلت أوربا حين طرحت اللاتينية التى كانت لغة الأدب والعلم والثقافة ، لا يحيد عنها الأدباء أو العلماء أو المفكرون ، فلما طرحت هذه اللغة ، واستخدم الأوربيون لغاتهم المحلية نهضت البلاد وارتقت الآداب وتقدمت العلوم وازدهرت الثقافات .

والواقع أن إطراح اللاتينية كان ضروريا لنهضة أوربا ، لأنها كانت لغة غريبة عن الشعوب الأوربية ، فلكل شعب لغته المختلفة فلا مبرر فى إقحام لغة أخرى وفرضها على الناس

---

(١) ويرى علماء العربية أن هذا خطأ ، والصحيح أن نقول : (أنا بوصفى عربيا ....) .

، صحيح أن للاتينية تأثيرات لا ينكر على اللغات الأوربية ، وأن بعض هذه اللغات جاءت من اللاتينية الأم ، ولكن هذا كله لا يكفى لفرض لغة أجنبية على الشعوب فليس أحب لدى الإنسان من لغته الأم ، أى لغة تامة ، ولا أسهل منها لديه ولا يمكن أن يتقن لغة أجنبية كما يتقن لغة الأم .

أما اللغة العربية فشأنها مختلف إذ إن هذه الفصحى ليست لغة مستقلة أجنبية عن بنى العرب ، فالعربية فى نظرنا هى الفصحى والعامية معا ، وهذا ما يحدث فى جميع اللغات وإن كانت العربية تختلف عن غيرها فى كثرة اللهجات ، والسبون الشاسع بين هذه اللهجات العامية وبين الفصحى ، كما سنشير بعد ذلك .

إن العربية ليست كاللاتينية يمكن استبدالها بالعاميات المختلفة فى أقطار العالم العربى لأن هذا معناه تقطيع أوصال هذا العالم العربى وفرض العزلة على أقطاره ووضع الحواجز بين العرب وبين المتعربين الذين يعرفون غير الفصحى ، كما يصبح تعلم العربية أمر مستحيلا إذا سيقف المرء حيران أى العاميات يختار وأيها يتعلم ؟ بل يصبح تعلم أى منها مضيعة للوقت والجهد فماذا سيجنى من تعلم تلك اللهجات التى سوف تتحول إلى لغات مستقلة .

إن المسلم عربيا أو أعجميا يتعلم العربية الفصحى ، لأنها لغة دينه وشعار الإسلام وأهله ، ولذا فإن إطراح هذه اللغة الشريفة معناه فصل المسلمين عن تراث الأربعة عشر قرنا الماضية ذلك التراث العملاق الذى يقدم بين ما يضم علوم الدين واللغة وما خلفه القدماء والمحدثون ، بل يصبح هذا التراث بحاجة إلى ترجمة إلى الأجيال القادمة التى لن تفهم شيئا منه .

وهذه الحقائق كلها لا تخفى على الغرب ورجاله ومستشرقيه بل يحاول عامدا توجيه ضربة قاصمة إلى هذا الدين بإطراح العربية وإحلال اللهجات العامية محلها ، فالحرب فى المقام الأول والأخير حرب دينية ولو لم يكن للغتنا شرف الدين القيم لما اهتم أحد من الغرب

فضلا عن غيرهم - بها ولا اكترث ، وبرغم ما سبق فإن بعض أبناء العربية ربما ينخدع بما يقوله بنوا الغرب ، فينجر خلف موجة العداء [1] (١) والتحاءل على لغة القرآن .

صفوة القول أن تنحية العربية الفصحى وإحلال اللهجات العامية مكانها قول مرفوض شكلا وموضوعا ، ولا يقول به إلا رجل فقد دينه أو فقد عقله .

وكما تعرضت الفصحى للهجوم على عهد الاحتلال الأوربى فقد تعرض نظام الكتابة هو الآخر لهجوم عنيف على زعم أن هذا النظام به ثغرات كثيرة أهمها عدم كتابة الحركات القصار ، أى الفتحة والضمة والكسرة والسكون بشكل منفصل عن الكتابة ، كما هو الحال فى الحركات الطوال ، أى ألف المد وواو المد وياء المد .

والحق أن إصلاح النظام الكتابى فى أية لغة أمر وارد ممكن وهذا مما قام به المحدثون والقدماء على السواء ، بدءا من أبى الأسود الدؤلى ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر والخليل بن أحمد ، هؤلاء الأفذاذ الأربعة الذين كان لهم دور أساسى فى إصلاح الأبجدية العربية ، ومرورا بغيرهم ممن كانت لهم أدوار ثانوية أو مجهولة ، وانتهاء بالعلماء المحدثين الذين حاولوا تيسير الكتابة العربية وتطوير حروف الطباعة لتسهيل طبع الكتب العربية خدمة للقارئ العربى والمكتبة العربية .

أما إلغاء الحروف العربية واستبدالها بأخرى لاتينية أو غيرها فهو أمر مرفوض لأن معناه تحويل جميع العرب والمتعربين إلى أميين ، لأننا سوف نحتاج إلى إعادة تعليمهم من

---

(١) أما صعوبة تعلم اللغة العربية فإن علم اللغة الحديث يمكن أن يقدم الحلول المناسبة لمن كانت لديه النية المخلصة فى إتقان هذه اللغة الشريفة ، سواء أكان من العرب أو من غيرهم .

جديد ، حيث نظام الكتابة مختلف عما عرفوه وألفوه ، كما ستنقطع الصلة بين الأجيال التى تعلمت الكتابة الجديدة وبين التراث العربى العظيم .

سوف تنفصل الأمة عن ماضيها ، ويصبح التراث بحاجة إعادة كتابته حسب النظام الجديد ، ولا سبيل إلى ذلك ، فمن يتعب نفسه فى تعلم نظام للكتابة غير

وإن من مارس الأعلام العربية ، والترجمة إلى العربية بوجه عام ليرى مدى الصعوبة فى كتابة بعض الأعلام بالحروف اللاتينية ففى لغتنا كثير من الأصوات غير الموجودة فى غيرها ، مثل الأصوات المطبقة : الصاد - الضاد - الطاء - الظاء ، والمفخمة: الغين - الخاء - القاف ، والحلقية : العين - الحاء ، وكذلك التراكيب الصوتية التى لا تستقيم كتابتها ولا تنسجم بغير الكتابة العربية انظر مثلا إلى كلمة إسحاق إذا كتبناها (ISAAC) فكيف تنطقها فى هذه الحالة ؟ هل تنطقها : (إيزاك) فتصبح الكلمة مستقلة عن : (إسحاق) العربية ؟ أم نكتبها (ISHAC) فهل تنطقها : (إسهاك) أم ترى هى : (إيشاك) فإن الحرفين (SH) ينطقان شينا ! !

أرأيت كيف سيوقعنا هذا النظام الكتابى اللاتينى فى فوضى واضطراب نحن فى غنى عنهما ، هذا فى الأعلام فقط ، فما بالنا باللغة كليا ! !

أما الحركات القاصر وإهمال كتابتها أو كتابتها منفصلة فلا يوقع فى لبس أو خلط لأن المعول - عند القراءة - على الخبرة اللغوية[1] (١) والثقافة العامة ، وفهم السياق ، ومع هذا فإننا

---

(١) برغم تشكيل جميع الآيات القرآنية فإننا لا نعتمد على ذلك ، بل المعول على الحفظ والتلقى ، فإذا اختلفنا ونسينا شيئا فلا بأس من الرجوع إلى المصحف لمعرفة النطق الصحيح .

(٢) هناك مطبعة فى لبنان تستخدم طريقة للكتابة هى عبارة عن استخدام الحروف العربية مفردة ، فقط لإقحام رموز الحركات القصار على رموز : الصوامت ، كما قام بمحاولة مماثلة أحد أساتذة جامعة

عند الاحتياج يمكن تشكيل الحرف الذى يتحمل أكثر من حركة قصيرة ، أو نظن أن القارئ لن يتمكن من نطقه بطريقة صحيحة ، كما يحدث مثلا فى الكتب المحققة ، أو فى غيرها ، أما المحاولات الفاعلة التى تريد تشويه الكتابة العربية لإقحام رموز الحركات القصار(٢) داخل الحروف ، فلا سبيل إلى مناقشتها أو التفاهم مع من يدعون إليها بل الحديث عنها مرفوض جملة وبالتفصيل .

ومن عجب أن الأبجدية العربية حوربت خارج العالم العربى بضراوة شديدة ، كما حوربت فى بلاد العرب ، حدث هذا - على سبيل المثال فى تنزانيا ونيجيريا ، وما أمر تركيا منا ببعيد ، حيث ألغى نظام الكتابة العربى ، استخدام النظام اللاتينى مكانه حتى ترتقى تركيا وتصبح دولة أوربية ، ويرضى عنها الغرب ، كل هذا لفصل المسلمين عن إخوانهم العرب وعن لغة قرآنهم .

ونختم حديثنا عن لغتنا بنظرة على مستوياتها المعاصرة ، فنقول أو نؤكد على القول بأن العربية تشمل ضمن ما تشتمله العامية والفصحى معا ، وإطلاق العربية على الأخيرة فقط إطلاق خاطئ ، كما نؤكد أن هذا وضع طبيعى موجود فى جميع لغات الدنيا ، وإذا كان الفارق بين العاميات أو بينها وبين الفصحى فارق واضح ، أو قل فوارق شاسعات واضحات فإن هذا مرجعه إلى ظروف العالم العربى وما تعرض له من مشكلات فرضت عليه الجهل والأمية وقطعت أوصاله .

القاهرة ، وقد عرضها فى مؤتمر القلقشندى بجامعة بنها ، الذى عقد فى أبريل ١٩٨٥ م ، وقد أثارت الطريقة اشمئزاز الحضور واستياءهم .

والحل هو فتح الأبواب لاتصال أقطار العرب بعضها ببعض ، وتوسيع رقعة الفصحى على حساب العامية ، ومحاربة الأمية والجهل ، ومحاصرة اللهجات العامية وحصرها فى أضيق نطاق لإفساح أوسع مجال للنطق الفصيح ، فلا يحلمن أحد منا بأن تموت تلك العاميات وتحل الفصحى مكانها إن هذا أمر مستحيل لا سبيل إليه أما مطاردة العامية وحصرها فى نطاق ضيق فهو ممكن ، كما أشرنا .

ولا خوف على الفصحى من تلك العاميات طالما هذا الكتاب الكريم يتلى ويحفظ حتى تقوم الساعة فستبقى لغتنا وبخاصة فصحاها فربنا العزيز الحكيم القائل : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] (١) ومن هنا كانت قيمة العربية ، وكانت الحرب النروس ضدها فى بلاد العرب وبلاد الغرب وبلاد المسلمين عامة .

وبسبب اليقين الكامل ببقاء العربية ، وبخاصة فصحاها ترفض رفضا باتا تسمية الفصحى بالكلاسيكية ، كما سميت اللاتينية أو اليونانية أننا لا نسمع بتشبيه لغتنا الشريفة شعار الدين وأهله بتلك اللغات الميتات .

أما مستويات العربية المعاصرة ، فهى :

أولا : العربية الفصحى :-

ويمكن أن نسميها الفصحى فقط ، وهى تعنى أعلى درجات الصحة فى العربية على الإطلاق ، ويمثلها النص القرآنى حين يقرأ قراءة[1] (١) مجودة جيدة ، يليه نصوص الحديث

---

(١) الحجر .

(١) لا يقصد بكلمة مجودة أى مقابلة للقراءة المرتلة ، كما نسمعها فى المصحف من إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة ، وإنما نقصد القراءة الجيدة الصحيحة التى تراعى جميع الأحكام والقوانين الصوتية .

النبوى الشريف حين ينطق نطقا صحيحا ، فالقرآن والحديث يمثلان قمة الصحة دلاليا ونحويا وصرفيا ، أما على المستوى الصوتى فإن الأداء القرآنى - حسب نطق القراء المصريين المجيدين - أعلى درجات الفصحى ، يليه النص النبوى إذا قرئ قراءة صحيحة ، إذ يمكن التساهل أو التغاضى عن المد والإدغام الإقلاب فى قراءة الحديث أما فى القرآن فلا يمكن التغاضى عن أبسط القوانين الصوتية وإلا لوقعنا فى اللحن والخطأ ، وهو محرم شرعا .

ثانيا : العربية الفصيحة :

ويمثلها ما يكتبه العرب المتعربون وما ينطقونه محاكين فصحى القرآن والحديث صحيح أن هذه اللغة الفصيحة قد يشوبها اللحن بسبب تأثرها بالعامية أو لغة الأم ، وبخاصة على المستوى الصوتى ، ولكنها أقرب إلى الفصحى من العامية على أية حال .

ومن أمثلة هذا المستوى ما يبدعه العلماء والمكرون والأدباء من كتابات ، فى شتى العلوم والفنون باللغة العربية ، والمتحدثين بالعربية الفصيحة بشكل عام ، بشرط ألا يغلبها اللحن وأرشاب العابرة ، أو الخلط بين العامية والفصحى كما يفعل بعض الناس ، فتصبح لغة شوهاء لا تنتمى إلى هذا أو تلك .

والفارق بين المستويين السابقين ، أن مستوى الفصحى ، ومستوى الفصيحة فارق قليل ، ويعول عليهما فى التفاهم بين بنى العرب فى أى مكان وبينهم وبين المتعربين الذين تعلموا العربية فى بلادهم أو فى غيرها ، إذ هؤلاء المتعربون بشكل خاص لا يعرفون شيئا من العاميات المنتشرة فى بلاد العرب والتى تعكر صفو اللغة الفصحية ، وإن كانت اللغات المحلية لها تأثير كبير على عربية هؤلاء الأقوام ، وبخاصة على المستوى الصوتى حيث يصعب عليهم نطق كثير من أصوات العربية ، مثل الأصوات المطبقة والمفخمة والحلقية .

ثالثا : اللهجات العامية :

تلك اللهجات المنتشرات فى كل صقع من أصقاع الوطن العربى من المحيط إلى الخليج ، بل تجد العاميات مختلفة داخل القطر نفسه فتجد فى مصر لهجات للصعيد وأخرى للوجه البحرى ولكل محافظة لهجة بل قل لهجات ، بل لا نبالغ إذا قلنا فى كل بلد وفى كل قرية مهما صغر حجمها وإن كان جميع أبناء مصر يستطيعون التفاهم - برغم هذه الاختلافات - فيما بينهم ، حيث يحاولون فى الغالب اصطناع اللهجة القاهرية ، وإن نطقها كل متأثرا بلهجته الخاصة ، وهو أمر لا يخفى على المتخصص ، الذى يغرق بسهولة بين قاهرية الصعيد وقاهرية أبناء الوجه البحرى ، إذا اللهجة القاهرية ليست فى نطق الجيم والقاف كما يظن بعض الناس .

وهذه اللهجات العامية كما ذكرنا جزء لا يتجزأ من لغتنا العربية ، وإن كان البون بيننا وبين المستويين الأول والثانى شاسعا كما أن أبناء العرب يستطيعون التفاهم بينهم باستخدامها ، وبخاصة المثقفون ، وسوف تعيش هذه المستويات الثلاثة مع بعضها ، وإن اختلفت مساحة انتشار كل منها ، دون انتظار لذوبان أحدها فى غيره أو موته .

المحاضرة التاسعة

التراث العربى

***

كان العرب قوما أميين ، لا يقرأ منهم ولا يكتب إلا القليل النادر ، حتى قيل إن من كان يعرف القراءة والكتابة فى جزيرة العرب يعدون على أصابع اليد الواحدة ، فلما أكرمهم الله بالنبى الخاتم - صلى الله عليه وسلم - بدأ التفكير فى كتابة القرآن الكريم ثم حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم العلوم العربية والإسلامية ثم بدأت حضارة عملاقة تستوى على عودها ، وتقد إسهاماتها فى مجال الحضارات الإنسانية ليكون لها الدور المتميز المقتبس من الدين الخالد .

ولاشك أن تراث المسلمين - كما وكيفا - تراث عظيم ضخم ولا تستطيع الإنسانية تجاهله ، وسوف نشير إلى بعض أمثلة فقط ، كما سيأتى .

ولكننا يجب أن نحسم وصف هذا التراث أو تسميته ، هل هو تراث عربى أم تراث إسلامى ، وإذا قلنا إنه تراث عربى جاء غير العرب فقالوا وهو محقون إن إسهام الأعاجم فى هذا التارث لا يقارن بإسهام العرب أنفسهم ، ويأتى العرب فيقولون من العلماء الغرب الخلص فلا وفلان .... الخ .

والحق أن هذا التراث العظيم تراث عربى ، لأنه كتب باللغة العربية إسلامى أيضا ساهم فيه العرب وغيرهم على السواء فالإسلام ولغته العربية لا يخصان الشعوب الإسلامية كليا ومن ثم يمكن القول بأن التراث الذى خلفه المسلمون تراث عربى اللغة واللسان إسلامى العقيدة والبنيان .

ولكن كيف كانت البداية لهذا التراث العظيم إنها كتابة القرآن الكريم والحديث ثم العلوم التى تخدم هذا القرآن العظيم ، وتلك إلماحة لبعض المؤلفات الأولى فى العربية .

أولا : القراءات القرآنية ...

نتناول فى هذه المقدمة تاريخ القرآن الكريم منذ نزوله : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) حتى الآن ، وذلك بشكل مختصر ومركز ، ونقسم تاريخ القرآن على حسب المعالم البارزة فيه على هذا النحو :

١- القرآن فى عصر النبوة .

٢- القرآن فى عصر الصحابة .

٣- القرآن فى عصر التابعين .

٤- القراء السبعة والعشرة والأربعة عشر .

ونتناول خلال ذلك مقاييس الشذوذ فى القراءة ، وبعض الأمور المتعلقة به مثل حكم القراءة بالشواذ وصلتها بالأحرف السبعة .. الخ .

(١) القرآن فى عصر النبوة :

نتناول فى هذا البحث القرآن الكريم فى مكة ثم فى المدينة وما يتصل بهذا المبحث حديث : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) كما سيأتى .

أ- القرآن فى مكة :

أول ما نزل القرآن نزل بمكة ، حيث كان المؤمنون بالنبى - صلى الله عليه وسلم - كلا متجانسا ، فأغلبهم من قريش ، وعددهم محدود ، واتصالهم بنبيهم ومعلمهم دائم وعهدهم بالإيمان قريب فهم من كل وجه - عددا ونوعا وظرفا - قادرون على حفظ القرآن وتلاوته صحيحا سالما من الغلط والتعريف .

وتدلنا قصة إسلام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على أنهم كانوا يكتبون القرآن ، فلقد كان لدى أخته صحيفتان فيهما شئ من القرآن فى ذلك الوقت المبكر ، وإن كانت الكتابة لم تكن على سبيل الحصر فى صحف وقراطيس ، بل إن الحفظ كان هو الأساس والأصل ، وليس التلاوة من صحف مسطورة .

وكان من عجز من المؤمنين - إن وجد - لديه الفرصة أن يقوم لسانه ويراجع رسول الله أو بعض الصحابة لتصحيح خطئه ، ومن هنا لم تنشأ اختلافات فى قراءة النص القرآنى تلزم مواجهتها كمشكلة ، بل لم تظهر أية مشكلات من أى نوع ، وذلك بسبب ظروف المؤمنين المشار إليها ، ولكن حين انتقل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة تغيرت الحال على ما سنذكره الآن .

ب- القرآن فى المدينة :

عندما هاجر المصطفى وصحابته إلى المدينة زاد عدد المؤمنين بالدعوة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأتيح للدعوة فى المركز الجديد أن تراسل الأقوام والقبائل فى شتى أنحاء الجزيرة وخارجها ، وجاءت الوفود تترى ممثلة لمختلف الألسنة واللهجات ، وكان المجتمع المدنى ذاته خليطا من العرب واليهود ومن هؤلاء وأولئك مسلمون ، وإن كانوا من اليهود قليلا يضاف إلى ذلك أن العهد الجديد يحتاج إلى إمكانات واسعة فى تبليغ الدعوة ونشر القرآن نصها المنزل ليكون دستورا للحياة الإسلامية فى الدولة الجديدة ، كذلك كانت أعمار المسلمين تتفاوت ، وأكثرهم من الكبار الذين فاتهم عهد التعليم والحفظ فأصبح من العسير أن يداوموا على استظهار القرآن .

وفوق ذلك كله فالنبى - عليه السلام - مشغول بمسئوليات هائلة ، هذه ظروف جدت فى المجتمع وأحاطت بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وصحابته ، وفى مثل هذا الزحام من الناس ومن المشكلات لا تعرف الحياة الأناة ، بل من استطاع أن يظفر بقطعة أو قطعتين من

فم النبى فقد واتاه خير كثير ، وليقرأ بقدر ما تسعفه ذاكرته ولهجته وزكانته ، وفى حدود ما علمه الرسول عليه السلام .

هذا الوصف السريع للحياة الجديدة هو الذى أثار كثيرا من المشكلات فيما يتصل بقراءة القرآن ، وهو ما نتناوله الآن.

جمع القرآن حفظا :

إن همة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه كانت منصرفة أول الأمر إلى جمع القرآن بحفظه واستظهاره ، فهو نبى أمى بعثه الله فى قوم أميين ، لا يقرءون ولا يكتبون أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم فى ذلك العهد ، ومن هنا كان التعويل على الحفظ ، على عادة العرب يومئذ (١) .

ولذا لم يقضى الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى جمع القرآن فى صدور كثير من الصحابة ، مثل الخلفاء الأربعة وعبادة الصامت وغيرهم بل جمعه بعض الصحابة من فيه - صلى الله عليه وسلم - مثل أبى كعب وزيد بن ثابت وغيرهما (٢) .

كتابة القرآن :

لقد حظى القرآن الكريم بأوفى نصيب من عناية النبى وصحابته ، فلم تصرفهم العناية بحفظه عن عنايتهم بكتابته ، ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة فى عصرهم
ومن ثم اتخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - كتابا للوحى ، فكلما نزل شئ من القرآن أمر بكتابته .

على أن بعض الصحابة كان إذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج فى سرية فنزلت فى وقت معين سورة فإنه كان إذا رجع أخذ فى حفظ ما نزل ، وتتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه .

وقد قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يكن القرآن قد جمع فى مصحف بل كان فى الكرانيف والسعف [1] (١) والألواح ، وإذا أخذ فى الاعتبار أن القرآن كان ينزل منجما على حسب الأحوال والحوادث فإنه لو جمع فى صحف أو مصاحف لسكان عرضة للتغيير كلما وقع نسخ أو حدث سبب ما مع أن الظروف لم تكن تساعد ، والأدوات الكتابية غير ميسورة والتعويل كان على الحفظ قبل كل شئ (٢) .

ولما استقر الأمر بختام التنزيل وأمن النسخ ووجد من الدواعى نسخة فى صحف أو مصاحف كان ذلك على يد الخلفاء الراشدين كما سيأتى .

وصفوة القول : إن الرسول قبض والقرآن محفوظ فى الصدور ، ومكتوب فى السطور أيضا ، ولكنه مفرق فى الألواح والأكتاف والعسب ... الخ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن بجملته كان معلوما على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت السور معدودة مرتبة معروفة ، لا يشك فيها أحد من الصحابة ، غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها فيما بين الدفتين ، ولم يلزموا القراء توالى السور .

الأحرف السبعة :

قال عمر بن الخطاب سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها وكان رسول الله أقر أنيها فكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انتهى ، ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله فقلت : يا رسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأ تنبيها فقال الرسول : (أرسله يا عمر) فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله :

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢١ ، وانظر القرآن فى الإسلام للعلامة الطباطبائى ص ١٣٣ .

(٢) مناهل العرفان للزرقانى ص ٢٤٨ .

(هكذا أنزلت) ، ثم قال لى : (اقرأ) فقرأت فقال : (هكذا أنزلت ، أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرؤوا منه) .

وقد أفاض القدماء والمحدثون فى شرح هذا الحديث ، وبيان المقصود من الحرف والأحرف السبعة ... الخ ، ولذا فسوف يقتصر حديثنا على ثلاث نقاط ، ***هى : ...***

١- معنى الأحرف .

٢- مصدر الأحرف السبعة .

٣- سبب اختلافها .

وكل ذلك بهدف الوصول إلى مفهوم محدد للأحرف السبعة .

(١) معنى الأحرف : ..

الأحرف جمع حرف كفلس وأفلس ، وهو جمع قلة ، وتدور المعانى المعجمية لهذه الكلمة حول الطرف والحافة والحد والناحية والواحد من حروف الهجاء والجهة والطريقة وقد جاء فى القرآن الكريم بمعنى الوجه ، قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على [١] حرف)(١) أى على وجه واحد فقط ، وهو وجه النعمة والخير دون سواه .

ونحن نرى أن الأحرف التى أشار إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - هى أوجه مختلفة من القراءات المتغايرة ، وقد سميت هذه الأوجه أحرفا على شئ من التوسع والمجاز كعادة العرب فى تسمية الشئ باسم ما هو منه ، أو ما يقاربه أو حتى ما يجاوره .

ونحن نميل إلى الرأى القائل بأن المراد بالسبعة ليس حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السعة والتيسير ، وأنه حرج على الأمة فى قراءته بما هو من لهجات العرب ، فقد أذن لهم ربهم فى ذلك قال رسول الله : (إنه قد وسع لى أن أقرئ كل قوم بلغتهم)

---

(١) ١١ / الحج

فإنه لم يجهل شئ من لهجات العرب ، فقد أوتى جوامع الكلم ، وذكر أبو العالية الرياحى أن قوما قرءوا على الرسول الكريم فاختلفوا فى اللهجة فرضى قراءتهم جميعا ، فكان بنو تميم أعرب القوم .

وسئل على عن قول النبى - عليه الصلاة والسلام - : (أنزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها كاف شاف) ، قال (صدقوا ، أنزل القرآن على سبعة أحرف ، وأكثر من ذلك على كلام العرب ، بكل شئ كان المعنى فيه واحدا فى العربية ، فإذا تكلمت به كان صوابا ، فقد نزل على سبعة أحرف ، وعلى أكثر من ذلك ، وعلى أكثر من بضعة وعشرين حرفا ، إذا كان ذلك جائزا فى كلام العرب [1] (١) .

(٢) مصدر الأحرف : ..

ونتساءل عن مصدر هذه الأحرف أو الأوجه ؟ ونرى أنها أتت من مصدرين اثنين ، هما : ...

١- أنزلت أحرف مختلفة من عند الله ، فقد عارض جبريل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذه الأحرف المختلفة خلال عرضاته فى رمضان من كل عام ، والتى بلغت اثنتى عشرة عرضة ، فالحديث (أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه) أى أن المسلم يقرأ على الحرف الذى يتفق مع لهجته وظروفه .

٢- خرج بعض الصحابة عن اللفظة القرآنية إلى لفظة أخرى مرادفة ، أو نطقت بعض الألفاظ متأثرة بلهجة القارئ ، ولكن ذلك مشروط - فى رأينا - بإقرار الرسول له ، وهذا نسخ بالطبع بعد وفاته ، - صلى الله عليه وسلم - .

---

(١) مقدمة المبانى ص ٢١٥ .

(٣) سبب اختلاف الأحرف : ..

ولكن ترى ما السبب فى اختلاف هذه الأحرف ، ولماذا لم ينزل القرآن على حرف ، كما كانت الكتب السابقة . ؟

الواقع أن لهذا الاختلاف فوائد كثيرة من أهمها : ..

١- اليسر والسعة فى قراءة القرآن ، فهناك الأمى الذى لا يستطيع أن يطوع لسانه لإقامة حروفه ، أو الشيخ الكبير الذى نشأ على لهجة لا يستطيع التحول عنها [١] (١) ، أو عن بعض خصائصها .

٢- إن فى نزول القرآن على أحرف مختلفة نهاية البلاغة وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار ، وجمال الإيجاز ، إذ كل قراءة بمنزلة الآية ، فالنطق المختلف لكلمة من الكلمات يقوم مقام آيات ولو كان كل نطق آية خاصة لكان فى ذلك تطويل واضح .

٣- وفى ذلك برهان واضح على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فمع كثرة الخلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ، بل يصدق بعضه بعضا ، وهو على نمط واحد وأسلوب واحد ، وما ذلك إلا آية بالغة على أن هذا الكتاب من عند الله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

وبرغم هذا كله فإن أبا بكر لم يجمع الناس على صحفه ، بل كانوا يقرءون بقراءات مختلفة على ما أقرهم رسول الله وأصحابه ، وظل ذلك إلى خلافة عثمان [١] (٢) ، واشتهر فى

---

(١) انظر مقدمة المبانى ص ٢١٨ .

(١) تفسير النوسابورى ١ / ٢٣ ، وانظر القراءات واللهجات للأستاذ عبد الوهاب حمودة ص ٦٧ .

خلال ذلك الصحف التى كتب عن الصحابة مثل مصحف ابن مسعود وما كتب عن الصحابة بالشام ، ومصحف أبى وغيرة ، كل هذا حسب الأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن .

أما أن أبا بكر لم يجمع الناس على صحفه فلأنه لم يحصل شقاق أو خلاف حول القراءات كما حدث على عهد عثمان ، فقد كان القوم قريبى عهد بالنبوة ، لم يتفرق الصحابة بعد فى البلاد ، على نحو ما حدث فى خلافة عثمان ، ولذلك لم يجد أبو بكر مبررا لفرض صحفه على الناس ، وظل الأمر هكذا طيلة عهد عمر وبداية عهد عثمان حتى كان الجمع الثانى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن جمع أبى بكر كان غير مرتب السور ، ولكنها - أى السور - كانت آياتها معروفة مرتبة.

أما الصحف التى كتبها أبو بكر فقد ظلت عنده حتى مات ، ثم عند عمر حتى مات ، ثم عند حفصة أم المؤمنين .

(٢) القرآن فى عصر الصحابة : ....

وفى هذا العصر نجد معلمين بارزين فى تاريخ القرآن ، وهما جمع القرآن على عهد أبى بكر ، وكتابته على عهد عثمان .

أولا : جمع أبى بكر للقرآن : ..

كان القرآن على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متفرقا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه فى صحف وفى جريد أو لخاف ... الخ ، فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة بعد سنة فقط من وفاة الرسول - على عهد أبى بكر - أشار عمر على الصديق بجمع القرآن ، فكان الجمع الأول للكتاب [١] (١) العزيز .

---

(١) تفسير القرطبى ١ / ٥٠ .

ولم يُسْبَق الصديقُ بهذا الأمر ، ولم يعرف لأحد قبله ، وهذا لا ينافى أن الصحابة كانت لهم صحف أو مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل ، لكنها لم تظفر بما ظفرت به صحف أبى بكر من دقة البحث والتحرى ، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته ، ومن بلوغها حد التواتر ، ومن إجماع الأمة عليها .

ثانيا : كتابة القرآن على عهد عثمان : ...

اجتمع أهل الشام والعراق فى غزو أجبنية ، وقرأت كل طائفة بما روى عن الصحابى الذى أخذت عنه فاختلفوا وتنازعوا ، بل كفر بعضهم بعضا ، وحين رأى ذلك الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان أشفق عليهم ، ورجع المدينة فلم يدخل بيته حتى نزع إلى أمير المؤمنين قائلا : (أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك) قال : (فى ماذا ؟) قال : (فى كتاب الله) ووصف له اختلاف المسلمين ، ثم قال : (إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم اختلاف اليهود والنصارى) .

بل وروى أن مثل هذا الخلاف حدث فى المدينة أيضا ، فقد جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل فجعل الصبيان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، وكفر بعضهم بعضا فبلغ ذلك عثمان فقام خطيبا فقال : (أنتم عندى تختلفون فمن نأى عنى من أهل الأمصار أشد اختلافا) .

ولذا فقد جمع عثمان الصحابة وقال لهم : (ما ترون فى المصاحف فإن الناس قد اختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك ، وقراءتى أفضل من قراءتك ، وهذا شبيه الكفر) ، فقال الصحابة : (ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين ؟) فقال : (الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعضكم أشد اختلافا) قال الصحابة : (الرأى رأيك يا أمير المؤمنين) .

ومن ثم أرسل عثمان إلى حفصة أن : (أرسلى إلى بالمصحف ننسخها ثم نردها إليك) ثم أمر الرجال الأربعة زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن

الحارث ابن هشام ، أمرهم بنسخ تلك الصحف فى خمسة مصاحف [1] (١) ، بعث بأربعة منها إلى الأمصار الكبرى - مكة والكوفة والبصرة والشام - واستبقى واحدا معه بالمدينة .

ولم يكتف عثمان بهذا ، بل أحرق ما عدا ذلك من الصحف أو المصاحف التى كتبها الصحابة على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - باستثناء صحف أبى بكر التى ردها إلى حفصة ، ثم كتب إلى الأمصار التى أرسل إليها المصاحف : (أنى صنعت كذا وكذا ومحوت ما عندى فامحوا ما عندكم) .

نتائج المصحف الإمام : ..

<u>كان لعمل عثمان النتائج الآتية : ..</u>

١- أجمعت الأمة على ما تضمنته المصاحف العثمانية ، وترك ما خالفها من زيادة أو نقص مما كان مسموحا به ، ضمن رخصة الأحرف السبعة - ومما لم يثبت عندهم ثبوتا مستفيضا أنه من القرآن ، وبهذا أصبح للأحرف السبعة إطار لا تخرج عنه ، وهو الرسم العثمانى .

٢- كل قراءة وافقت الرسم العثمانى - بالإضافة إلى صحة السند - هى قراءة صحيحة يجوز القراءة بها فى الصلاة وفى غيرها ، وكل قراءة خالفت الرسم فهى مردودة مرفوضة [1] (٢) ، وبذا أصبح للقراءة الصحيحة شرطان الأول صحة السند ، والثانى موافقة الرسم .

٣- بعد إحراق ما بأيدى الناس من الصحف بأمر من الخليفة انتهت تلك الصحف - أو المصاحف الخاصة - إلا أنه لم يكن بمقدور عثمان - رضى الله عنه - أن يقضى على ما حفظ الناس الناس عن الصحابة من وجوه مختلفة ، فظل أمر هذه الوجوه الخارجة على إجماع الأمة

---

(١) تفسير النيسابورى ١ / ٢٣ .

(٢) تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين ص ١٢٥ .

محصورا فى نطاق ضيق ، نطاق الرواية والمشافهة فقط ، يتلقاها من يشاء سرا تارة ، وعلانية أخرى ١ (١) .

٤- إهمال ما نسخت تلاوته ، ولم يستقر فى العرضة الأخيرة .

٥- جمع عثمان الأمة على القراءات التى لا تخرج عن الرسم ؟، وحسم الخلاف بين المسلمين .

٦- كان الرسم خلوا من النقط والشكل مما جعله يجمع وجوه القراءات المختلفة التى تزل عليها القرآن .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمل رسمها من الأحرف السبعة ، حاملة للعرضة الأخيرة لم تترك حرفا منها ولهذا السبب جردت من النقط والشكل (٢) ، أما ما لم يحتمل الرسم فقد وزع فى المصاحف المختلفة حتى لا يندرس أو يذهب ، ولهذا اختلفت المصاحف فى بعض الأحرف ، فاختلف مصحفا أهل المدينة والعراق حرفا ، ومصحفا أهل الكوفة والبصرة فى خمسة أحرف .

٧- ترتيب السور والآيات على لوجه المعروف الآن ، بخلاف صحف أبى بكر التى كانت مرتبة الآيات دون السور .

(٣) القرآن فى عصر التابعين : ..

أصبح للقراءة إطار لا تخرج عنه - بعد الإطار الأول والأهم وهو صحة السند - هذا الإطار الجديد هو موافقة الرسم ، وبدأ أهل كل بلد يقرءون بما فى مصحفهم ، ويتلقون ما فيه

---

(١) المرجع السابق . انظر الطبرى ١ / ٢١ .

(٢) الإتفاق ١ / ١٧٧ ، والنشر ١ / ١٣١ .

عن الصحابة الذين تلقوه عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم قام التابعون بذلك مقام الصحابة .

وظل الإطاران صحة السند وموافقة الرسم يحددان القراءة الصحيحة المقبولة حتى كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم ، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يصح القراءة به ، كمن قرأ : (وكلم الله موسى [1] (١) تكليما) بنصب لفظ الجلالة .

فلما وقع ذلك رأى المسلمون الإجماع على الأئمة الثقات الذين تجردوا لحمل القرآن ، فاختاروا من كل بلد وجه إليه مصحف أئمة اشتهروا بالضبط والثقة والأمانة فى النقل ، وحسن الدراية وكمال العلم ، ولم تخرج قراءاتهم عن مصحف بلدهم ، ولهذا كله ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم .

فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح ثم نافع بن أبى نعيم ، وكان بمكة عبد الله بن كثير وحميد بن قيس الأعرج ومحمد بن محيصن ، وكان بالكوفة يحيى بن وثاب وعاصم بن أبى النجود وسليمان الأعمش ثم حمزة الكسائى .

وكان بالبصرة عبد الله بن إسحاق وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء ثم عاصم الجحدرى ثم يعقوب الحضرمى ، وكان بالشام عبد الله بن عامر وعطية بن قيس الكلابى وإسماعيل بن عبد الله المهاجر ثم يحيى بن الحارث الذمارى ثم شريح بن يزيد الحضرمى .

وبعد ذلك خلف من بعد هؤلاء بعد خلف كان فيهم المتقن وغير المتقن ولذا كثر الاختلاف ، وظهر الخلط والاضطراب ، واشتبه صحيح القراءات بشاذها ، ومن ثم وضع العلماء هذا الإطار الثلاثى المشهور للقراءة الصحيحة المقبولة فى نظرهم - وهو صحة السند وموافقة الرسم وموافقة العربية .

---

(١) ١٦٤ / النساء .

والجديد الذى أضيف هنا ، أو نمى عليه صراحة هو موافقة العربية أو موافقة قواعد العربية التى بدأت تنضج وتقف على قدميها لتضاف إلى صحة السند وموافقة الرسم .

ومن خلال هذا الإطار بدأ الحكم على القراءات ، وقام العلماء فبالغوا فى الاجتهاد ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزوا الوجوه والروايات ، وميزوا بين الصحيح والشاذ .

وهكذا نجد فى هذه المرحلة شيئين لم يكونا من قبل : ..

١- وجود قراء متخصصين نسبت إليهم القراءة كأبى جعفر وابن كثير وعاصم وغيرهم .

٢- وجود إطار معروف ومشهور للقراءة الصحيحة .

وقام مهد القراء المتخصصون والإطار المحدد لحركة تدوين القراءات ولاختيار القراء السبعة ، والعشرة ،ثم الأربعة عشر .

(٤) القراء السبعة :

انتهينا فيما سبق إلى أن القراءة الصحيحة أصبح لها إطار محدد ، وبه بدأ الأئمة يحكمون على القراءة وعلى أصحابها ، ولم يكن من اليسير حصر هؤلاء القراء الذين اتسموا بالدقة والضبط من أمثال شيبة بن نصاح وابن جندب وابن هرمز .. الخ ، فلما طال الزمن وقصرت الهمم اقتصر على بعض هؤلاء القراء لسبب [١] (١) أو لآخر مما سيتضح فيما بعد .

وقد اشتهر بعض هؤلاء القراء فى نهاية القرن الثانى الهجرى فكان الناس بالمدينة على قراءة نافع ، وفى مكة على قراءة ابن كثير وفى الشام على قراءة ابن عامر ، وفى الكوفة على قراءتى حمزة وعاصم وفى البصرة على قراءتى أبى عمرو ويعقوب .

---

(١) المنجد لابن الجزرى ص ٤٨ .

وظل الحال هكذا حتى جاء ابن مجاهد فكان له هذا الدور البارز فى تاريخ القرآن والقراءات .

أما أسباب اختيار هؤلاء القراء دون غيرهم فيرجع إلى ما يلى : ...

١- كثرة الرواة عنهم .

٢- شيوع قراءاتهم أكثر من غيرها .

٣- شهرتهم بالثقة والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة .

٤- وأهم من ذلك كله أن قراءاتهم كانت لا تخرج عن الإطار الثلاثى السابق ذكره .

دور ابن مجاهد : ..

ظلت قراءات الأئمة السبعة السابقين لا تأخذ حظها من التدوين والشهرة والانتشار حتى جاء ابن مجاهد ، فقد رأى القراءات أخذت تتكاثر حتى وصل بها بعض القراء إلى نحو خمسين قراءة ، وأوشك أن يكون هذا بابا لدخول شئ من الاضطراب على ألسنة القراء ، فقد كانوا على درجات من الضبط والإتقان ، زد عليه ما كان يرويه بعض القراء - مثل ابن شنهوذ - عن مصحفى أبى وابن مسعود ، بل كان بعض القراء مثل ابن مقسم العطار - يستنبط بعقله من احتمالات القراءة للرسم العثمانى ، مما جعل الحاجة تشتد إلى اختيار طائفة نابهة من القراء يكتفى بهم عن سواهم حتى يستطيع الناس استيعاب قراءاتهم وتمثلها ، فاجتهد ابن مجاهد حتى استصفى سبعة من القراء من المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام ، فاختار من الأولى نافعا (ت ١٦٩ هـ) ، ومن الثانية ابن كثير (ت ١٢٠ هـ) ، ومن الثالثة عاصما (ت ١٢٧ هـ) وحمزة (ت ١٥٦ هـ) والكسائى (ت ١٨٩ هـ) ، ومن الرابعة أبا عمر بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، ومن الشام اختار ابن عامر (/ ١١٨ هـ) .

ويلاحظ أنه اختار من كل بلد قارئا واحدا ما عدا الكوفة التى اختار منها ثلاثة ، ويفسر ذلك بأنه ربما رأى أن لكل واحد من هؤلاء الثلاثة قراءة متميزة عن زميليه ، وقد حملها عنه كثير من الرواة ، ومن ثم استبقى الثلاثة جميعا .

ومن الملاحظ أن قراءات هؤلاء السبعة كانت مشهورة أكثر من غيرها منذ نهاية القرن الثانى وحتى عهد ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) عدا الكسائى (ت ١٨٩ هـ) الذى وضعه بدلا من يعقوب الحضرمى (ت ٢٠٥ هـ) .

ويقال أن ابن مجاهد بقى مدة من الزمن قبل تأليف كتابه يترجم بين تقديم الكسائى أو يعقوب حتى استقر رأيه على تقديم الأول .

ولا نزاع فى مكانة الكسائى فى القراءة والنحو والعربية ، فقد نظر فى وجوه القراءات ، فاختار من قراءة حمزة وغيره قراءة متوسطة غير خارجة عن آثار من تقدمه ، فكان إمام الناس فى القراءة فى عصره ، كما كان رأسَ مدرسة الكوفة النحوية ، قال عنه ابن مجاهد : (كانت العربية علمه وصناعته) ، ولهذا كله قدم الكسائى على يعقوب .

إلا أننا نلمح شيئا آخر إضافة إلى مكانة الكسائى هو أن جميع القراء الذين اختارهم ابن مجاهد هم ممن عاشوا فى القرن الأول الهجرى ثم امتد بهم العمر حتى منتصف القرن الثانى أو ممن تجاوزه بقليل مثل أبى عمرو (ت ١٥٤ هـ) ونافع (ت ١٦٩ هـ) ، فإذا ما قورن الكسائى (ت ١٨٩ هـ) بيعقوب الذى امتد به العمر حتى القرن الثالث ، فقد توفى سنة (٢٠٥ هـ) أمكن القول بأن تقديم الكسائى أمر طبيعى ومنسق مع اختيار القراء الستة ، فقد كان أقرب إلى عهد النبوة والصحابة وتابعيهم ، وكان لهذا الأمر أهميته ومكانته عند الأئمة القدماء ، ولقد كان ابن مجاهد على وعى كامل بتلك الروح التى تجل السلف وتضعهم فى مكانتهم .

ولقد ضمن ابن مجاهد قراءات السبعة كتابه الذى سماه كتاب السبعة فى القراءات - الذى حظى بتحقيق الدكتور شوقى ضيف - ولم يكن هذا الكتاب هو الوحيد الذى سجل القراءات الصحيحة - مع تفاوت درجات الصحة - إذ سبقه فى هذا المجال المصنفات الآتية :

١- كتاب القراءات لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) جمع فيه خمسة وعشرين قارئا مع السبعة .

٢- كتاب القراءات الخمسة لأحمد بن جبير الكوفى ، نزيل أنطاكية (ت ٢٥٨ هـ) وجمع فيه خمس قراءات ، كما هو واضح من اسم الكتاب .

٣- كتاب القراءات للقاضى إسماعيل بن إسحاق المالكى - صاحب قالون - (ت ٢٧٢ هـ) جمع فيه عشرين إماما منهم السبعة .

٤- الجامع فى القراءات لأبى جعفر الطبرى (ت ٣١٠ هـ) جمع فيه أكثر من عشرين قراءة .

٥- وأخيرا كتاب القراءات لأبى بكر محمد بن أحمد الداجوانى الذى كان معاصرا لابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) وقد ضم إلى ما جمعه الطبرى قراءة أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى .

وبرغم تلك المصنفات وغيرها مما جاء بعد ابن مجاهد فقد كان كتابه معلما بارزا فى تاريخ القرآن وإقرائه فلم يستطع أحد أن يراجع ابن مجاهد فيمن رأى تقديمه من هؤلاء السبعة ، فقد ارتضت الأمة قراءاتهم جميعا ، أى ارتضت اجتهاده .

وعلى أية حال فإن ابن مجاهد لم يختر هؤلاء السبعة إلا بعد اجتهاد طويل ، ومراجعة متأنية فى سنوات طوال ، غير مدخر جهدا ولا وقتا ، متكلفا للأمة ما تنوء به العصبة القوية حتى استطاع أن يستخلص للناس هذه القراءات الوثيقة .

ولكنه حين اختار سبعته لم يسقط رواية من سواهم ، ولم يبدرهم وإنما جعلهم وراء السبعة فى علو المسند والرواية ، وهو لا يقصد بوصفهم بالشذوذ أنه لا تصح القراءة بها ، وإنما يقصد وراء السبعة فى عدد من يقرؤون بها فى الأمصار .

وبما أن ابن مجاهد اختار هؤلاء السبعة دون أن يجرح من وراءهم أضاف العلماء ثلاثة من القراء إلى سبعته على ما سنذكره بعد .

ولكن قبل أن ندلف إلى هذا الموضوع نشير إلى ملاحظة تختص السبعة والعشرة أيضا ، وهى أن كل إمام من السبعة عنه كثير من الرواة والتلاميذ ، وكلهم ثقات ، ومع هذا فقد اشتهر عن كل قارئ راويان فقط ، فنافع مثلا اشتهر عنه ورش وقالون فقط برغم أنه كان له كثير من الرواة من أشهرهم وأهمهم - بالإضافة إلى ورش وقالون وإسماعيل بن جعفر وأبو خليد بن جحاز وخارجة والمسيبى .

ويبدو أن الذى بدأ باختيار روايتى فقط لكل قارئ هو الإمام عثمان ابن سعيد الذانى الأندلسى (ت ٤٤٤ هـ) ثم أكد هذا الاختيار وعمقه الإمام الشاطبى (ت ٥٩٠ هـ) فى قصيدته اللامية التى سماها حرز الأمانى ووجه التهانى التى اشتهرت فيما بعد باسم الشاطبية ، ثم شرحها فيما بعد الذين كان لهم فضل كبير فى سعة انتشارها ، ومن ثم التأكيد على راويين فقط لكل قارئ .

وكان أبو الجود غياث بن فارس الذى قرأ على الشاطبى أول من شرح الشاطبية ، وقام بذلك فى دمشق ، وقد كان شغوفا بالقصيدة معنيا بها ، وطال عمره واشتهرت فضائله فقصده الناس من الأمصار فاشتهرت الشاطبية بسببه ، قال فى المنجد : (وإلا فما كان قبل تعرف الشاطبية أو تحفظ - أى فى المشرق - فكان أهل مصر يحفظون العنوان لأبى الطائف مع مخالفته الإرشاد لأبى العز القلانسى ، ولذا نظمه كثير من الواسطيين والبغداديين ميلا ما وقع من فتنة هؤلاء بالعراق وفتنة جنكيز خان ببلاد الحج وما وراء النهر وقتل من أهل القراءات لما اشتهرت الشاطبية والتيسير ، كما هو معلوم عند العلماء المحققين وصفوة القول إنه بعد ابن

مجاهد اشتهر أمر سبعته الذين اختارهم كما تأصل الإطار الثلاثى للقراءة وعمليا ، يضاف إليه اختيار راويين لكل قارئ من السبعة والعشرة إلى الأربعة عشر لما ذكرنا من أسباب .

وبرغم اختيار ابن مجاهد واجتهاده إلا أن العلماء وجدوا أن هناك من القراءات ما يتوفر لها الشروط الثلاثة :

صحة السند وموافقة الرسم وموافقة العربية ، ولا تخرج عن هذا الإطار الثلاثى ، ومن ثم أضافوا إلى سبعة ابن مجاهد ثلاثة آخرين على ما سنفعله الآن .

القراءات الثلاث المكملة للعشر : ..

اختار ابن مجاهد القراء السبعة ، ورضيت الأمة اختياره ، ولم يشكك أحد فى قراءة أحد منهم ، أو يضع قارئا ممن وراء السبعة مكان أحدهم إلا أن العلماء كانوا يرون أن اختيار ابن مجاهد ليس معناه أن ما وراء السبعة لا تصح القراءة به ، فإن القضية ليست قضية أشخاص ، بل للقراءة الصحيحة إطار لا تخرج عنه ، وأركان يجب أن تتوفر فيها ، فإذا تحققت كانت القراءة صحيحة ، ولو غاب ركن منها كانت القراءة غير صحيحة ولو جاءت عن السبعة جميعا ، وكل من ثبت عنده قراءة - أى توفرت فيها الأركان الثلاثة - فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء ، قال فى النشر : (إن أئمة القراءة بالعراق الذين ثبت عندهم قراءات العشرة أو الأحد عشر - العشرة ، الأعمش - كتبوت هذه السبعة يجمعون فى ذلك الكتب ، ويقرءون بذلك فى الصلاة وخارجها ، وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم) .

ومن ثم اعتبرت القراءات الثابتة عن الأئمة القراء كأبى جعفر ويعقوب وخلف ونحوهم بمنزلة القراءات الواردة عن السبعة عند من يثبت ذلك عنده ، وهذا ما اتفق عليه الفقهاء والقراء .

ومن هذا المنطق رأى العلماء إضافة ثلاثة من القراء إلى السبعة هم :

١- أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدنى (ت ١٢٠ هـ) فقد روى عنه قراءته أحد السبعة ، وهو نافع بن أبى نعيم ، وأقرأ بها ورواها عنه جماعة منهم قالون ، وكان أبو جعفر قد عرض القرآن على ابن عباس حبر الأمة ، كما قدم للصلاة وصلى وراءه ورع المسلمين عبد الله بن عمر .

٢- يعقوب بن إسحاق الحضرمى البصرى (ت ٢٠٥ هـ) إمام جامع البصرة ، وإمام قراء البصرة فى زمانه فى رأس المائتين [١] (١) .

٣- خلف بن هشام البغدادى (ت ٢٢٩ هـ) وكان إماما كبيرا عالما ثقة زاهدا عابدا.

ومن ثم أصبحت القراءات الصحيحة التى تجوز القراءة بها عشر قراءات ، سبعة ابن مجاهد مضافا إليهم الثلاثة الذين ذكروا ، ومن أقدم من ألف فى هذه العشر أبو بكر بن مهران الأصبهانى (ت ٣٨١ هـ) ألف فيهم كتابه (الغاية فى العشر) ثم توالت المؤلفات بع- ابن مهران حتى انتهت إلى ابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) صاحب السفر الجليل (النشر فى القراءات العشر) .

وبهذا أصبحت القراءات تدخل ضمن الإطار الثلاثى أو الأركان الثلاثة - منذ القرن الرابع وحتى الآن - أصبحت هذه القراءات صورة للقراءات الصحيحة فى عمره فيقول :

(والذى وصل إلينا متواترا وصحيحا مقطوعا به قراءات الأئمة العشرة ورواتهم المشهورين ، هذا الذى تحرر من أقوال العلماء ، وعليه الناس اليوم بالشام والعراق ومصر والحجاز وأما بلاد المغرب والأندلس فقد بلغنا عنهم أنهم يقرءون بالسبع من طرق الرواة الأربعة عشر فقط ، وربما ليعقوب الحضرمى) .

---

(١) النشر ١ / ٣٩ .

أما ما عدا هذه القراءات العشر فقد عدت شاذة ، لا تجوز القراءة بها ، وكان كتاب النشر ولا يزال ذا أثر فعال فى تأكيد هذه الحقيقة فقد اعتبر ما جاء فيه عن العشرة صحيحا موثوقا بصحته ، وما عدا ذلك فهو شاذ ، لا تجوز القراءة به .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن القراءات الصحيحة والموافقة للرسم - أي العشر - إنما هى بعض الأحرف السبعة من غير تعيين لهذه الأحرف فإن المصحف الإمام كتب على حرف واحد ، إلا أنه لتجرده من النقط والشكل احتمل أكثر من حرف ، إذ لم يترك الصحابة إدغاما ولا إمالة ولا حالة من أحوال الهمزة ، ولا نحو ذلك مما هو بين باقى الأحرف الستة ، وإنما تركوا ما كان قبل من زيادة كلمة أو نقص أخرى ، ونحو ذلك مما كان مباحا لهم القراءة به.

القراءات الأربع فوق العشر : ..

انتهينا فيما سبق إلى أن للقراءة الصحيحة إطارا لا تخرج عنه ، وأن القراءات التى تدخل فيه هى القراءات العشر فقط ، أما ما وراءها فهو شاذ .

ونشير هنا إلى نقطتين هامتين - فى نظرنا - أولاهما مبررات وضع قراءات الأربعة فى الشواذ ، والثانية فى ضوء هؤلاء القراء ثم إلحاقهم بالعشرة مع الإشارة إلى شذوذ قراءاتهم .

أولا : ذكر العلماء أن للقراءات الصحيحة أركانا إن توفرت فيها غدت صحيحة وإلا فهى مردودة ، ينطبق هذا على السبع وما وراءها ، هذا من الناحية النظرية المحضة ، أما من الناحية العملية فإن العلماء اعتبروا ما وراء العشر شاذا .

ولكن ترى ما السبب فى شذوذ قراءات الأربعة موضع دراستنا إنه يكمن فى عدة أمور ، أهمها : ..

١- إن هذه القراءات - بشكل عام - وردت من طرق غريبة ، لا يعتمد عليها ، ويرى ابن الجزرى عدم جواز الصلاة بها لكثرة انفرادها عن الجادة ، أى انفرادها عن القراءة المشهورة المقبولة .

٢- كان بعض هذه القراءات من الأحرف المرخص بقراءتها قبل المصحف الإمام ، فكان الأعمش مثلا يصر على قراءة ابن مسعود - برغم تحذير الحجاج لمن يقرأ بها - وكان فى تلك القراءة كثير من الأحرف التى تخالف المصحف الإمام ، فقد بعث ابن مسعود إلى أهل الكوفة ليعلمهم فأخذت عنه قراءته قبل أن يجمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد حمل عنه الأعمش كثيرا من الأحرف التى لا توافق الرسم .

٣- وصف الأعمش والحسن البصرى كلاهما بتدليس الإسناد فى الحديث وربما كان هذا أحد الأسباب الهامة لاعتبار قراءتيها من الشواذ .

٤- كان لابن محيض اختيار فى القراءة على مذهب العربية ، فخرج عن إجماع أهل مكة فرغب الناس عن قراءته ، كما وصفت قراءاته بغرابة السند ، وأن فيها من الأوجه ما ينكر ، كما وسعت بمخالفة المصحف الإمام .

ومن خلال ما سبق يتضح أن قراءات الأربعة فقدت بعض أركان القراءة الصحيحة ، وخرجت عن إطارها ، وهو صحة السند وموافقة الرسم وإن توافر فيها شرط موافقة العربية كما سيتضح فى الدراسة اللغوية - ولذا رسمت الشذوذ .

ثانيا : لقد أخذت قراءات الأربعة وضعا مخالفا لغيرها من الشواذ ، إذ وضعت بعضها مع بعض ، ثم ألحقت بالعشر الصحيحة ، قبل كان ذلك لأن لها صيغة واحدة ، أو اتجاها واحدا .

إن فيهم اليزيدى والحسن ، وكلاهما نصرى ، وفيهم كوفى هو الأعمش ، ومكى هو ابن محيض ، فهل كان لقراءات هؤلاء جميعا اتجاه واحد ؟ إننا نستطيع أن نشير هنا - من خلال الدراسة التاريخية - إلى بعض الأسباب ، وهى : ..

١- إن لكل من هؤلاء الأربعة قراءة كاملة ، ولبس الأمر مقتصرا هنا على الانفراد ببعض الأحرف أو الأوجه ، بل لكل منهم شخصية مستقلة فى القراءة ، ولكل منهم قراءة خاصة تنسب إليه ، وأما غير الأربعة مما وراء العشرة ، فلعل قراءاتهم أو حروفهم كانت لا تختلف عن قراءة أهل بلدهم إلا فى أحرف قليلة ، ومن ثم لا مبرر لنسبة قراءة لأى منهم .

٢- إن هؤلاء الأربعة يجمع بينهم شئ هام ، وهو أن قراءاتهم جميعا شاذة فى رأى جمهور العلماء ، ولذا فوضعها مع بعضها أمر طبيعى .

٣- ذكر ابن الجزرى أنه قرأ بما وراء العشر على شيوخه ، وقرأ هؤلاء على شيوخهم ، ولم ينكر عليه أحد ذلك ، بل تقل عن كثير من الأئمة جواز القراءة بقراءة الأعمش بالذات .

٤- وقد ضم أبو الحسن الخياط البغدادى (ت ٤٥٠ هـ) فى كتابه الجامع قراءة الأعمش إلى العشر ، وحذا حذوه الحسن بن محمد البغدادى (ت ٤٣٨ هـ) .

وقد أسقط عبد الله بن على المعروف بسبط الخياط البغدادى (ت ٥٤١ هـ) أبا جعفر من العشرة ووضع مكانه ابن محيض ، كما وضع معهم الأعمش واليزيدى ، كما ضم بعض العلماء الحسن البصرى إلى الثلاثة ابن محيض والأعمش واليزيدى إضافة إلى العشرة ليصبح القراء أربعة عشر .

القراءات الآن : ..

عرفنا أنه حتى عصر ابن الجزرى كانت القراءات العشر هى السائدة وقد اشتهر عن كل قارئ راويان ، قال ابن الجزرى : (إن الذى وصل إلينا متواترا وصحيحا مقطوعا به

قراءات الأئمة العشرة ، ورواتهم المشهورين ، هذا الذى تحرر من أقوال العلماء ، وعليه الناس اليوم بالشام والعراق ومصر والحجاز [١] (١) ، وأما بلاد المغرب فهم يقرءون بقراءة نافع رواية ورش ، ولا زالت هذه القراءة فيهم حتى الآن .

وبرغم هذا فإن العشر لم يعد منها غير روايات قليلة ، والقراءة السائدة الآن فى العالم الإسلامي هى قراءة عاصم ، رواية حفص فقط ، إضافة إلى روايات أخرى قليلة ليست على شهرة رواية حفص وهى :

١- رواية ورش عن نافع التى تلى فى الشهرة رواية حفص ، وهى موجودة فى مصر والمغرب ، وقد نقلها إلى مصر عثمان بن سعيد لملقب بورش (ت ١٩٧ هـ) ونقلها إلى المغرب يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ هـ) والمشهور من رواية ورش هو طريق أبى يعقوب الأزرق المصرى (توفى فى حدود عام أربعين ومائتين) ولعل هذا الرجل كان من أهم أسباب انتشار رواية ورش فى مصر ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المغرب ، ثم امتدت إلى وسط إفريقية وغربها .

٢- رواية قالون عن نافع ، ويختص بها غالبية أهل ليبيا وموريتانيا وبعض أهالى تونس والجزائر .

٣- رواية الدورى عن أبى عمرو ، وهى موجودة فى بعض مناطق السودان .

ومن الصعب معرفة الأسباب الكامنة وراء بقاء هذه الروايات دون غيرها ، فهذا الأمر بحاجة إلى دراسة خاصة .

---

(١) المنجد ص ٢٣ .